مكتبتنا العربية

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الأول	٤٠ المحرم سنة ١٣٦٣	المجلد الخامس عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة	الاشتراكات عن سنة
ميدان الأزهر	داخل القطر ... ... ٢٠٠ مليم
تيفون : ٨٤٣٣٢	لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠
الرسائل تكون باسم مدير المجلة	خارج القطر ٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤٤)

مكتبتنا العربية

فهرس

الجزء الاول — المجلد الخامس عشر

			صفحة
فاتحة السنة الخامسة عشرة	بقلم	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٣
السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة	«	« « « «	٥
تفسير سورة التكاثر	«	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	١٣
السنة — حديث لا هجرة بعد الفتح	«	« « « طه الساكت	١٦
الفلسفة الاسلامية فى الشرق	«	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	١٩
فلسفة ابن سينا العملية			
المدخل الى دراسة الفلسفة الاسلامية	«	فضيلة الأستاذ محمد يوسف موسى ...	٢٧
خالد بن الوليد	«	« « صادق عرجون ..	٣٣
محمد عبده والدفاع عن الاسلام... ...	«	حضرة الأستاذ الدكتور عثمان أمين .	٣٠
نظرية المعرفة عند ابن سينا	«	« « « أحمد فؤاد الأهوانى	٣٣
الحجاج بن يوسف الثقفى	«	فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عماره ...	٣٧
كلمة تاريخية عن المكتبة الأزهرية	«	« « « أبو الوفا المراغى	٤١
معترك الفلسفتين ـ خصائص العقل الباطن	«	حضرة « مدير المجلة	٤٤
المذاهب الغنوصية فى العالم الاسلامى	«	« « « على سامى النشار ...	٤٩
الغنوصية والعلم	«	« « « مدير المجلة	٥١
نظرية فى تاريخ الاسلام	«	فضيلة الأستاذ الشيخ حسين المصرى	٥٤
إعجاز القرآن للباقلانى	«	« « « يوسف البيومى	٥٨
عظمة الله فى خلق السموات والأرض	«	« « عبد العزيز السيد موسى	٦٢
مجلة لكلية اللغة العربية	«	« « « أحمد الشرباصى	٦٥

مكتبتنا العربية

فاتحة السنة الخامسة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى يهدى الصالحين الى المراشد ، ويمدهم بالتوفيق الى أشرف المقاصد ، وأصلى وأسلم على المثل الأعلى لجميع المحامد ، محمد خاتم المرسلين الأماجد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه ما عبد الله عابد ، وجاهد فى الحق مجاهد .

أما بعد فاننا بهذا العدد نفتتح السنة الخامسة عشرة لمجلة الأزهر ، ولسنا نتمدح بما بذلناه فى سبيل ترقيتها من جهود ، فان ذلك يرجع الى توفيق الله وإمداده ، والى الذين تفضلوا بمعاونتنا عليه من العلماء ، ونخبة الكتاب ؛ على أننا جميعا إنما ننفق أفضل ما ذخرناه من القوى الأدبية لإقامة هذا الصرح العلمى الفخم ، ليكون جديرا باكبر وأقدم جامعة عالمية طبقت شهرتها الخافقين ، واثقين بأن كل جهد يبذل فى هذه السبيل إنما هو لخدمة الاسلام والمسلمين ، وللثقافة العامة أيضا.

إن لمجلة الأزهر مقصدين عظيمين ، أولهما خدمة الاسلام على النحو الذى يتفق وثقافة العصر الحاضر ، وتقبله عقلية أهله ؛ وهذا مقصد خاص ، فائدته قاصرة على أهل هذا الدين المنتشرين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وينظرون الى الأزهر نظرهم الى كعبة العلم ، وينبوع الهداية ، متلهفين أن يمدهم بما يبل أوامهم ، ويسد حاجتهم الدينية. وقد وفقت مجلة الأزهر لتوفية هذه الخدمة حقها ؛ فقد لا يمر يوم إلا ويصلنا من أقطار الأرض حيث يقيم المسلمون ، كتب حافلة بالثناء على هذه المجلة ، وبانها قد سدت لديهم فراغا كانوا يعجزون عن سده بوسائلهم الذاتية . لذلك دأب أهل هذه الأقطار إما على قراءة هذه المجلة إن كانوا يفهمون العربية ، أو على نقل عيون مقالاتها الى لغاتهم . فالهند والصين واندنوسيا ، وغيرها من بعيد الاصقاع ، تدور فى تيار الروح العلمية التى تمدهم بها المجلة الأزهرية ، وتزيدها قوة بما تبذله من تعميمها بما لا تستطيع وحدها ، لأنها لا يتأتى لها أن توجد إدارة للترجمة تحذق كل هذه اللغات [illegible]

أما ثانى المقصدين فهو خدمة القضية الدينية على وجه عام ، ضد الفلسفة المادية التى استبدت بالعقلية الغربية ثلاثة قرون متوالية ، فأفسدت المذاهب الفلسفية ، واستندت الى الناحية المادية من العلم ، فجعلت لنفسها سلطانا على الأذهان ، لم يكن لتعاليمها الإلحادية فى عهود البشرية ، وأسقطت من سلطان العقل فى الاشادة بالحس ، فأضاعت على الناس

مكتبتنا العربية

مزية الاستهداء بنور الوجدان ، توهما أن الحس وحده هو الموصل الى الحقائق ، ولولا أن تداركها الفيلسوف برجسون Bergson بما كشفه من خصائص الوجدان ، لضاقت حدود الفلسفة الحسية حتى فنيت فى العلم ، وفقدت وصفها كفلسفة .

نعم إن الدليل المحسوس هو الدليل الذى لا يمكن التمارى فيه ، ولكن فى الوجود حقائق أولية لا سلطان للحس عليها ولا يدركها إلا الوجدان ، والنظر العقلى المحض ، وهى تهم الانسان ، وتؤلف عناصر كماله المعنوى ، وعليها يقوم سموه الأدبى ، ولا غنى له عنها بوجه من الوجوه ، مما تعنى هذه المجلة ببيانه فيما تنشره من المباحث .

وإنما اضطرت مجلة الأزهر لأن تقف هذا الموقف للدفاع عن الأصول الدينية التى تقررها ، لأنه لا معنى لأن تقيم ما هى بسبيله من صرح الايمان ، بينما تندس فى العقول مزاعم إلحادية تهدم ما تقيمه منه ، إن لم يكن علنا ففى ثنايا النفوس ، وأحناء القلوب ؛ فلم تَنِ فى نشر البحوث الضافية فى محاسبة المذهب المادى على ما يبث من أصوله ومبادئه ، مستندة فى ذلك على الاكتشافات الحديثة للعلم ، مبينة بالأدلة القاطعة أن تلك الأصول قد حطمتها تلك المكتشفات تحطيما ، وذرتها فى الهواء . وكثيرا ما تستأنس فى هذا المجال باقطاب الفلسفة العالية فى الغرب ، فكان لجهادها فى هذه السبيل أثر ظاهر فى إنارة القلوب ، وتعديل الأنظار ، وإعادة سلطان الدين على العقول . فأصبحت مجلة الأزهر من هذه الناحية علما يستهدى بنوره الكافة فى هذا الموضوع العظيم الشأن .

وقد انتقد على هذه المجلة أنها تعنى بالنقل من الفلسفة الغربية أكثر من عنايتها بالنقل عن الفلسفة العربية . ونحن نرد على هذا النقد من وجهين : أولهما أن الفلسفة العربية هى الفلسفة اليونانية القديمة نفسها حذقها رجال من أوائلنا ولم تجد رواجا عند المسلمين لتهافتها على القول بقدم العالم ، وبان للكواكب أرواحا ، وغير ذلك مما يخالف شرط الحكمة الاسلامية ، وهو الدليل القاطع : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وثانيهما أننا باكثارنا النقل عن الفلسفة الغربية للقرن العشرين ، إنما نرمى الى دحض ما أوى الى الشرق من فلسفة القرن التاسع عشر الالحادية بواسطة الذين نهلوا من حياضها من قومنا ، ونهضوا لترويجها هنا ، بعد أن لفظها أهلها هنالك ، وفى هذا من مراعاة الحاجة الطارئة ما فيه .

ولسنا نستطيع ونحن نذكر مجلة الأزهر إلا أن ننوه بالتشجيع البالغ الذى يسديه حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول للازهر ولمجلته ، فانه حفظه الله قد نفحهما من جليل حمايته وعطفه ، بما يعجز ألسنة الشاكرين . لا زال ملكه قوى الدعائم ، وسلطانه رفيع الذرى ، شامخ الأركان ؟

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

تحقق الوحدة العربية باستسلام القبائل للدولة الاسلامية

بعد أن أتم النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة وتدويخه قريشا الوثنية ، وبعد أن أطفأ أكبر ثورة قبيلية فى شخص بنى هوازن وما استنصرت به من القبائل المشايعة لها ، عقب ذلك الفتح ، أدركت القبائل العربية المبعثرة هنا وهناك من جزيرة العرب أنه لاعصم لها من المفاجآت إلا بالاعتصام بالدولة الجديدة التى تأسست فى بلادها . وقد كان الدرس الذى تلقته قريش وهوازن من تلك الدولة ، كافيا فى تلقينها هذه الطريقة المثلى لحفظ وجودها بعيدا عن العطب . فكثرت وفود القبائل على النبي صلى الله عليه وسلم ودخولها فى طاعته ، وخضوعها لما يفرضه عليها من الإتاوات لتدارك حاجات الدولة الأدبية والمادية ، وقد بلغ عددها أربعين وفدا . ونحن نورد أشهرها هنا استيفاء لأركان هذه السيرة :

١ — وفد نصارى نجران :

نجران بلدة كبيرة على سبع مراحل من مكة الى جهة اليمن تشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، وصل وفدها الى مسجد المدينة بعد العصر وكان عددهم ستين رجلا ، فقاموا يصلون صلاتهم ، فمنعهم الناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : دعوهم يصلوا ، فاستقبلوا المشرق وصلوا ، وكان عليهم أردية من الحرير ، وفى أصابعهم خواتم من الذهب .

ثم عرضوا هدية أتوا بها للنبي صلى الله عليه وسلم وإذا فيها أبسطة ذات تماثيل ، ومسوح (هى أكسية من شعر) . فقال رسول الله : أما هذه البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما هذه المسوح فان تعطونيها آخذها . فقالوا نعطيكها .

ثم عرض عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فامتنعوا ، وطلبوا دفع الجزية ، فقبل منهم النبي ذلك ، وكان مقدارها ألف حلة فى صفر وألفا فى رجب ، ومع كل حلة أوقية من الفضة ، وكتب لهم كتابا . فاقترحوا أن يرسل معهم وكيلا عنه ، فأمر أبا عبيدة بن الجراح أن يصحبهم قائلا لهم : هذا أمين هذه الأمة . فصار يطلق عليه هذا الوصف بين الصحابة .

مكتبتنا العربية

٢ — وفد ضمام بن ثعلبة :

ووفد عليه ضمام بن ثعلبة فأناخ بعيره فى المسجد ورسول الله جالس بين أصحابه . فنظر الى الناس وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فدلوه على النبى صلى الله عليه وسلم ، فدنا منه وقال له : إنى سائلك فمشدد عليك فلا تجد على (أى فلا تغضب منى) . فقال له رسول الله : سل ما بدا لك.

فقال ضمام : يا محمد جاءنا رسولك فذكر أنك تزعم أن الله أرسلك . قال النبى : صدق — فقال ضمام : أنشدك برب من قبلك ورب من بعدك ، آلله أمرك أن تامرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها ؟ قال النبى : اللهم نعم — قال ضمام : أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال النبى : اللهم نعم — قال ضمام : وأنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هـذا الشهر من اثنى عشر شهرا ؟ قال النبى : اللهم نعم — قال ضمام : وأنشدك بالله آلله أمرك أن تحـج هذا البيت من استطاع اليه سبيلا ؟ قال النبى : اللهم نعم — قال ضمام : آمنت وصدقت ، ورجع الى قومه فدعاهم الى الاسلام فأطاعوه وأسلموا .

٣ — وفد بنى عبـد القيس :

كانت منازل هذه القبيلة بالبحرين ، وفد منها نفر منهم الجارود وكان على دين عيسى عليه السلام ، فلما أقبلوا سألهم النبى صلى الله عليه وسلم قائلا : من القوم ؟ فقالوا من ربيعة . فقال : مرحبا بالوفد غـير خزايا ولا ندامى . فقالوا : مرنا يارسول الله بأمر نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة .

فقال النبى : آمركم بالايمان بالله ، أتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم .

فسألوه عن النبيذ ، فقالوا يارسول الله ، إن أرضنا وخمة لا يصلحنا إلا النبيذ .

قال النبى : فلا تشربوا فى النقير (وهو أصل النخلة ينقر ليتخمر فيه الشراب)

فقال أحدهم واسمه الأشج : يارسول الله إن أرضنا وخمة وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا فرخص لنا فى مثل هذه ، وأشار الى يده . فأومأ عليه الصلاة والسلام بكفيه وقال : يا أشج إن رخصت لك فى مثل هذه (أى يدك) شربته فى مثل هذه (أى ملء اليدين مجتمعتين) حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه قام الى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف .

٤ — وفد بنى حنيفـة :

هم بنو حنيفة بن لجيم، وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا سبعة عشر رجلا فأسلموا، وكان معهم رجل يدعى مسيلمة تركوه فى رحالهم ليحفظها وكانوا يعظمونه ، وكان قـد بلغ

مكتبتنا العربية

رسول الله أنه قال لو جعل لى محمد الأمر من بعده لاتبعته ، فانطلق النبي اليه فى نفر من أصحابه وفى يده جريدة ، حتى وقف أمامه وقال له : إن سألتنى هذه الجريدة ما أعطيتكها .

٥ — وفد بنى طيئ :

بنو طيئ من أشهر قبائل العرب ، وفد رجال منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم سيدهم زيد الخيل ، وكان أعظم قومه جودا ، وأحسنهم خلقا ، فلما أقبل على النبي مسلما قال له وهو لا يعرفه : الحمد لله الذى أتى بك من حزنك وسهلك ، وسهل قلبك للايمان . ثم قبض على يده وسأله : من أنت ؟ فقال : أنا زيد الخيل بن مهلهل ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بل أنت زيد الخير ، وعرض الاسلام على من معه فأسلموا . وفى زيد الخيل هذا قال النبي : ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ماقيل فيه ، إلا زيد الخيل فانه لم يبلغ ماقيل فيه كل ما فيه .

وأجاز النبي صلى الله عليه وسلم كل رجل من هـذا الوفد خمس أواق من الفضة ، وأجاز زيد الخيل اثنتى عشرة .

ولما توفى رسول الله وارتدت قبائل برمتها ومنها بنو حنيفة ، ثبت زيد الخيل على إيمانه .

٦ — وفد عدى بن حاتم الطائى :

كان عدى بن حاتم الطائى قد تنصر فى الجاهلية ، فلما سمع بتدويخ النبي صلى الله عليه وسلم لقبائل العرب وخشى على نفسه ، خرج بأهله وماله الى الشام مهاجرا خوفا من بطشه . وكان له أخت سبيت فيمن سبي من نساء العرب ، فلما عرف رسول الله أنها ابنة حاتم الطائى المشهور بالكرم والمآثر ، أكرمها وكساها وحملها على بعير ، وأعطاها نفقة للسفر الى أخيها بالشام . فلما لحقت به نصحته أن يلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم قائلة له : إن كان محمد ملكا فأنت أنت لا يصيبك منه أذى ، وإن كان نبيا فللسابق اليه فضيلة . فخرج عدى قاصدا رسول الله ، فلما التقى به حدثت بينهما مباحثة دينية ، ثم قال له النبي : ياعدى لعل المانع لك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجة أهله وفقرهم ، فو الله ليوشكن المال أن يفيض حتى لا يوجد من يأخذه ؛ ولعلك إنما يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية (وهى قرية قرب الكوفة) على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف شرا ؛ ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل وقد فتحت عليهم . فأسلم عدى وحسن إسلامه .

٧ — وفد عروة المرادى :

وفد عروة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد أصيب قومه بشر مراد من بنى همدان فى وقعة بشر عظيم . فلما قابل النبي قال له : هل أساءك ما أصاب قومك ؟ قال يا رسول

مكتبتنا العربية

الله من ذا يصيب قومه ما أصاب قومى ولايسوءه ؟ فقال له النبي : أما إن ذلك لم يزد قومك فى الاسلام إلا خيرا . ثم ولاه على قومه وأرسل معه خالد بن سعيد بن العاصى عاملا على جمع الزكاة.

٨ — وفد بنى زبيد :

وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم ومعهم عمرو بن معد يكرب ، وهو فارس العرب المشهور بالشجاعة ، فأسلم .

٩ — وفد بنى كندة :

هى من قبائل اليمن ، وفد منها ثمانون رجلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل ستون ، فيهم الأشعث بن قيس . فلما دخلوا على النبي قالوا له : إننا خبأنا لك خبأ فما هو ؟ وكانوا قد خبأوا له عين جرادة فى إناء سمن . فقال لهم : إنما يفعل ذلك بالكاهن والكاهن والكهانة فى النار . ثم قال بعد كلام : إن الله قد أنزل علىّ كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فقالوا أسمعنا منه ،فتلا عليهم: «والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالناليات ذكرا ، إن إلهكم لواحد، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق » ثم سكت ودموعه تجرى على لحيته ، فقالوا : إنا نراك تبكى أمن مخافة من أرسلك ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : خشيتى منه أبكتنى ، بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت ، ثم تلا : «ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك » الآية . ثم قال لهم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى . قال : فما بال هذا الحرير (وكان عليهم جباب مسجوفة بالحرير) ؟ فعند ذلك شقه القوم وألقوه .

١٠ — وفد بنى أزد شنوءة :

هم من قبائل اليمن أقبلوا تحت قيادة رئيسهم صرد بن عبد الله الأزدى فأسلموا جميعا ، وأمر رئيسهم أن يغزو بهم من كان يليه من أهل الشرك .

١١ — وفد رسول ملوك حمير :

ذلك أن الحارث بن كلال والنعمان ومعافر وهمدان كتبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم باسلامهم ، فرد عليهم بكتاب أوصاهم فيه برسله الذين أرسلهم اليهم ، وهم معاذ بن جبل ورجاله معه لتحصيل الزكاة والجزية ، ثم ذكر لهم أن الزكاة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، وإنما هى للفقراء وابن السبيل .

١٢ — وفد رسول فروة بن عمرو الجذامى :

أوفد فروة بن عمرو من معان ، وكان عاملا للرومان على ما حولها من أرض الشام ، رسولا الى النبي صلى الله عليه وسلم بهدية هى بغلة وحمار وثياب وقباء مرصع بالذهب ، فقبلها وأعطى الرسول اثنى عشر أوقية من الفضة . فلما بلغ الرومان أمره قبضوا عليه وحبسوه ثم قتلوه .

مكتبتنا العربية

١٣ — وفد بني الحارث بن كعب :

وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا .

١٤ — وفد رفاعة بن زيد الخزاعي :

وفد رفاعة هذا على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم، فأرسل معه كتابا الى قومه يدعوهم فيه الى الاسلام . فأجاب القوم بالطاعة وأسلموا .

١٥ — وفد بني همدان باليمن :

تقدم منهم مالك بن نمط ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره على من أسلم من قومه . وحدث أنه لما بلغه إسلامهم قبل ذلك خرّ ساجدا ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان». وجاء في الأخبار أنه قال : نعم الحي همدان ، ما أسرعها الى النصر ، وأصبرها على الجهد ، وفيهم أبدال ، وفيهم أوتاد الاسلام .

١٦ — وفد بني تجيب من اليمن :

وفد على النبي صلى الله عليه وسلم منها ثلاثة عشر رجلا منهم معهم زكاة أموالهم . فقال لهم رسول الله : ردوها على فقرائكم . فقالوا ما قدمنا إلا بما فضل عن فقرائنا ، فدعا لهم وأجازهم .

١٧ — وفد بني ثعلبة من اليمن :

وفدوا على النبي وأسلموا وأبلغوه إسلام من خلفوه من قومهم ، فدعا لهم وأعطى كل رجل منهم خمس أوقيات من الفضة .

١٨ — وفد بني سعد من اليمن :

قال النعمان : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قومي وقد أوطأ البلاد ، والناس صنفان: داخل في الاسلام رغبة ، أو خائف من السيف ، فدخلنا المسجد وكان المسلمون يصلون على جنازة فانتظرنا حتى انتهوا . فأقبل علينا النبي وسألنا : أمسلمون أنتم ؟ قلنا نعم . قال هل صليتم على أخيكم ؟ قلنا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك . فقال أينما أسلمتم فأنتم مسلمون . ثم أجازهم وانصرفوا .

١٩ — وفد بني فزارة :

وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم مع رئيسهم خارجة بن حصن ، فسألهم رسول الله عن حالهم ، فقال خارجة : يا رسول الله أسنت بلادنا، وهلكت مواشينا ، فادع لنا ربك يغيثنا . فصعد المنبر ودعا لهم ، وانصرفوا مقرين بالاسلام .

٢٠ — وفد بني أسد :

وفدوا على رسول الله وفيهم ضرار بن الأزور فأسلموا ، وسألوه عما كانوا يفعلونه

مكتبتنا العربية

فى الجاهلية من العيافة (وهى زجر الطير والتفاؤل بطيرانها يمينا أو يسارا) ، والكهانة وضرب الحصباء ، فنهاهم عن ذلك .

٢١ — وفد بنى أسد :

وفدوا على النبى وأسلموا ، وقالوا : يارسول الله لم ترسل الينا داعيا ولم نقاتلك كما فعل العرب ، فأنزل الله عليه قوله : « يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا علىَّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين » .

٢٢ — وفد بنى عذرة :

هم من اليمن ، وفد منهم اثنا عشر رجلا على النبى صلى الله عليه وسلم وحيوه بتحية الجاهلية وهى : عم صباحا . فقال رسول الله : مرحبا بكم وأهلا . ثم قال : فما يمنعكم من تحية الاسلام ؟ قالوا يامحمد كنا على ما كان عليه آباؤنا فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا ، فإلامَ تدعو ؟ فقال لهم رسول الله : أدعو الى عبادة الله وحده ، وإلى أنى رسوله الى الناس كافة . فقال متكلمهم : فما وراء ذلك ؟ فقال النبى : الصلوات ، وسرد عليهم بقية الفرائض . فأسلموا . فقالوا : يا رسول الله فينا امرأة كاهنة أفنسألها عن أمورنا ؟ فقال لهم : لا تسألوها عن شىء .

٢٣ — وفد بنى بَلِىّ :

هم حى من قضاعة باليمن ، وفد جمع منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا . وقال له شيخهم أبو الضبيب : يا رسول الله إن لى رغبة فى إضافة الناس فهل لى فى ذلك أجر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم ، وكل معروف صنعته الى غنى أو فقير فهو صدقة . قال يا رسول الله وما وقت الضيافة ؟ قال ثلاثة أيام . قال فما بعد ذلك ؟ قال فصدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك . قال يا رسول الله والضالة من الغنم أجدها فى الفلاة ؟ قال : هى لك أو لأخيك أو للذئب . قال : فالبعير ؟ قال : مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه .

٢٤ — وفد بنى مرة :

وفد عليه منهم ثلاثة عشر رجلا مقدمين الطاعة ، فلبثوا أياما ثم ودعوه للانصراف ، فأمر لكل منهم بعشر أواق من الفضة ، ولرئيسهم باثنتى عشرة أوقية .

٢٥ — وفد بنى خولان :

هى قبيلة يمنية ، وفد منها عشرة رجال مصدقين برسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وموفدين من قومهم . فعلمهم رسول الله الفرائض وأمرهم بالوفاء بالعهد وحسن الجوار وأن لا يظلموا أحدا . ثم أجازهم وانصرفوا .

مكتبتنا العربية

٢٦ — وفد بني محارب :

كان هؤلاء القوم أشد الناس على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما مثلوا بين يديه نظر الى رجل منهم وقال له : قد رأينك . فقال الرجل : نعم ، وأنت في سوق عكاظ تعرض الاسلام على الناس ، فكلمتك بأقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد ، فأحمد الله الآن على أن جاء بي حتى صدقتك . ثم قال يارسول الله استغفر لي مراجعتي إياك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الاسلام يجب ما قبله من الكفر (أي يزيله) ، ومسح وجهه ، واسمه خزيمة بن سواد . ثم أجاز الوفد وانصرفوا .

٢٧ — وفد صداء :

هم حي من عرب اليمن ، وفد على النبي منهم رجل ليكلمه في رد بعث عسكري كان أعده لغزوهم ، وتمهد بأن قومه على رأيه في الدخول في الاسلام ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم جنوده . ووصل من صداء عشرة رجال فآمنوا ورجعوا إلى قومهم ففشا الاسلام فيهم .

٢٨ — وفد غسان :

وفد على النبي من بني غسان ثلاثة رجال ، فآمنوا شاكين في إسلام قومهم ، فصدق ظنهم فكتموا إسلامهم .

٢٩ — وفد بني سلامان :

وفد منهم على النبي صلى الله عليه وسلم سبعة رجال فأسلموا وضمنوا إسلام من وراءهم ، فقبل منهم وأجازهم .

٣٠ — وفد بني عبس :

وفد عليه منهم ثلاثة يسألونه أصحيح ماقاله لهم معلموهم : لا إسلام لمن لاهجرة له ، وإن لنا أموالا ومواشي ، فان صح هذا بعناها وهاجرنا ؟ فنفى رسول الله هذا القول .

٣١ — وفد بني مزينة :

وفد منهم على النبي أربعمائة رجل فآمنوا به ، ولما أرادوا الانصراف طلبوا زاداً يكفيهم الحاجة في الطريق ، فأمر عمر فزودهم تمراً .

٣٢ — وفد بني أشعر بن ود :

قدم أبو موسى الأشعري في رجال من قومه فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، فقال رسول الله : الأشعريون كصرة فيها مسك . وروى عنه أنه قال : جاء أهل اليمن وهم أرق أفئدة ، وألين قلوبا ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية .

٣٣ — وفد بني دوس :

بنو دوس ينتهي نسبهم إلى بني الأزد وهم من اليمن . أول من قدم منهم الطفيل بن عمرو

مكتبتنا العربية

الدوسي قبل الهجرة فعرض النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام عليه فأسلم . قال الطفيل فقلت يارسول الله إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع اليهم فعارض عليهم الاسلام . فلما ذهبت اليهم اتبعني بعضهم وأبى أكثرهم ، فعدت الى النبي فشكوت اليه أمرهم . فقال: اللهم اهد دوسا وائت بهم ، وأمرني أن أرجع اليهم وأن أرفق بهم ، فرجعت اليهم أدعوهم حتى هاجر النبي فعدت اليه بأربعمائة منهم ، ولم أزل مع النبي حتى فتح مكة ، فطلبت اليه أن يرسلني الى صنم دوس لأحرقه فبعثني . ثم لازمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات .

٣٢ — وفد بهراء :

هي قبيلة من قضاعة باليمن ، وفد منها ثلاثة عشر رجلا أسلموا وعادوا الى بلادهم .

٣٣ — وفد بني فامد :

هي قبيلة باليمن أيضا وفد منهم عشرة فأسلموا ، ثم أجازهم وانصرفوا .

٣٤ — وفد بني الأزد :

هم سبعة رجال من اليمن أسلموا وعادوا الى بلادهم يدعون قومهم .

٣٥ — وفد بني المنتفق:

قدم على رسول الله جماعة منهم فأسلموا وعادوا لهداية قومهم .

٣٦ — وفد النخع:

وفد منهم مائتا رجل مقرين بالاسلام ، وهم آخر من وفد على النبي صلى الله عليه وسلم .

نقول : المتأمل في توارد القبائل من كل صوب على جماعة المسلمين وإعلان انضمامهم اليهم ، يشهد منظرا رائعا من مناظر التوحد الاجتماعي بسرعة لم يمهد لها شبيه في تاريخ الجماعات البشرية . لأن أدوار التوحد والاندماج الطبيعية لاتحدث إلا وبين الدور والدور الذي يليه فترة طويلة تتخللها حوادث موجبة للتوحد ؛ ولكن الأمر الذي نحن بصدده يجري على غير السنة الطبيعية ، وبسرعة تكاد لا تصدق . فان قال قائل : إن الذي دعا الى هذه السرعة خشية القبائل من بطش المسلمين بهم ، قلنا إن صح هذا على القبائل المجاورة لمكة والمدينة ، فلا يصح على القبائل التي على مسافات شاسعة منهما ، كالتي تسكن اليمن والبحرين وغيرهما .

والذي يزيد هذا الأمر غرابة أن المسلمين لم يصدر منهم عسف بالذين لم يأتوهم طائعين من تلقاء أنفسهم يحملهم على المبادرة بالانضمام اليهم ، فلا بد من أن يكون لهذه الظاهرة الاجتماعية باعث نفساني في تلك القبائل أشعرها بانقضاء عهد التفرق ، وبأن حياة جديدة قد آذنت بالحدوث لتقود مجموعها الى وجهة واحدة على غرار سائر الأمم ، مما سنتتبع عوامله في حالة هذه القبائل حتى بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ؟

محمد فريد وجدي

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ، ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » .

قوله عز وجل « ألهاكم التكاثر » أى شغلتكم المفاخرة والمباهاة والمكاثرة بكثرة المال والعدد والمناقب عن طاعة الله ربكم واشتغالكم بما ينجيكم من سخطه .

ومعلوم أن من اشتغل بشىء أعرض عن غيره ، فينبغى للمؤمن العاقل أن يكون سعيه وشغله فى تقديم الأهم وهو ما يقربه من ربه عز وجل ، فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأخس المراتب ، والاشتغال به يمنع الانسان من الاشتغال بتحصيل السعادة الأخروية التى هى سعادة الأبد .

ويدل على أن المكاثرة والمفاخرة بالمال مذمومة ، ما روى عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية « ألهاكم التكاثر » فقال : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت ، أو أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ؟ ! » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن . وأخرج البخارى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يتبع الميتَ ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه ماله (كالعبيد) وأهله ، وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .

« حتى زرتم المقابر » أى حتى متم ودفنتم فى المقابر ، فأنه يقال لمن مات : زار قبره وزار رمسه ، فيكون معنى الآية : ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت وأنتم على ذلك .

مكتبتنا العربية

هذا ، وقد قيل إن هذه الآية نزلت فى اليهود قالوا نحن أكثر من بنى فلان وبنو فلان أكثر من بنى فلان ، فشغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالا . وقيل نزلت فى حيين من قريش وهم بنو عبد مناف وبنو سهم بن عمرو ، كان بينهم تفاخر فتعادّوا القادة والاشراف ، فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيدا وأعز عزيزا وأعظم نفرا وأكثر عددا ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثرهم بنو عبد مناف ، ثم قالوا : نعد موتانا وذوى الشرف منا ، فعدوا الموتى حتى زاروا القبور فعدوا من فيها ، فقالوا هذا قبر فلان وهذا قبر فلان ، فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا فى الجاهلية أكثر عددا ، فأنزل الله هذه الآية ، وهذا أصح . وكأنه تعالى يعجبهم من أنفسهم ويقول : هبوا أنكم أكثر منهم عددا فماذا ينفعكم ؟

ثم رد الله تعالى عليهم فقال « كلا » أى ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء بالتكاثر والتفاخر . وقيل المعنى : حقا ، فأن « كلا » تستعمل للردع والزجر ، وتستعمل أيضا بمعنى حقا ، وهى صالحة هنا للمعنيين . « سوف تعلمون » وعيد لهم .

« ثم كلا سوف تعلمون » كرره تأكيدا . والمعنى سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت . فهو وعيد بعد وعيد .

« كلا لو تعلمون علم اليقين » أى علما يقينيا . وجواب لو محذوف ، والمعنى لو تعلمون علما يقينيا لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر .

« لترون الجحيم » اللام تدل على أنه جواب قسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد وأن ما أوعدوا به لا يدخله شك ولا ريب . والمعنى لا بد أن تروا الجحيم بأبصاركم بعد الموت .

« ثم لترونها » يعنى مشاهدة بعد مشاهدة « عين اليقين » . وإنما كرر الرؤية لتأكيد الوعيد .

« ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » : يعنى أن كفار مكة كانوا فى الدنيا فى الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه لأنهم لم يشكروه حيث عبدوا غيره ، ثم يعذبون على ذلك . وذلك أن الكفار لما ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله والاشتغال بشكره سألهم عن ذلك .

وقيل إن هذا السؤال يعم الكافر والمؤمن ، وهو الأولى ، لكن سؤال الكافر توبيخ وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه ، والمؤمن يسأل سؤال تشريف وتكريم لأنه شكر ما أنعم الله به عليه وأطاع ربه . ويدل على ذلك ما روى عن الزبير قال : « لما نزلت « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » قال الزبير : يا رسول الله وأى نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : أما إنه سيكون » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن .

مكتبتنا العربية

واختلفوا فى النعيم الذى يسأل العبد عنه ، فروى عن ابن مسعود رفعه قال : لتسألن يومئذ عن النعيم قال : الأمن والصحة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم فيقال له : ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد» ؟ أخرجه الترمذى . وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاذا هو بأبى بكر وعمر ، فقال صلى الله عليه وسلم :ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله ، قال وأنا والذى نفسى بيده لقد أخرجنى الذى أخرجكما ، فقوموا ، فقاموا معه ، فأتى رجلا من الأنصار فاذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحبا وأهلا ! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان ـ يريد أبا طلحة صاحب البيت ـ قالت ذهب يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى . قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا ، وأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ! أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » وأخرجه الترمذى بأطول من هذا ، وفيه : ظل بارد ورطب طيب ، وماء بارد . ويروى عن ابن عباس قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العبيد فيم استعملوها والله أعلم بذلك منهم . وقيل يسأل عن الصحة والفراغ والمال . وأخرج البخارى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . وقيل الذى يسأل عنه العبد هو القدر الزائد على ما يحتاج اليه ، فانه لابد لكل أحد من مطعم ومشرب وملبس ومسكن . وقيل يسأل عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ويسأل عن الاسلام فانه أكبر النعم . وقيل عما أنعم به عليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنقذكم من الضلال الى الهدى ، وأخرجكم من الظلمات الى النور ، وامتن به عليكم ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

مكتبتنا العربية

السنة

لا هجرة بعد الفتح

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استُنفرتم فانفروا » . رواه الشيخان .

معاني المفردات :

الهجرة في أصل اللغة : الترك ، ثم غلبت على الخروج من أرض إلى أرض ، وقد شاعت في انتقال المسلمين الأولين من مكة إلى المدينة ، فلا يكاد يُفهم عند إطلاقها غير هذا المعنى ؛ فإذا أطلق ذكر الهجرتين فالمراد بهما هجرة الحبشة والمدينة . والهجرة في الشرع : ترك ما نهى الله عنه.

والجهاد في اللغة : المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل . وفي الشرع بذل الجهد في قتال الكفار . ويطلق على مجاهدة النفس ، والشيطان ، والفساق . وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » .

والاستنفار : الاستنجاد والاستنصار ، واستنفر الإمام الرعية فنفرت ؛ أي دعاها إلى الحرب والنصرة فأجابت وخرجت .

سبب الهجرة :

صدع النبي صلى الله عليه وسلم بما أمر ، فلقي هو وأصحابه من سخرية المشركين وضروب إيذائهم ما يزلزل أيسرُه عظماء الرجال ، ويأليت الخطب وقف عند السخرية والإيذاء ! إذاً لاحتملوه في ذات الله ، بالغاً ما بلغ وكائناً ما كان ، ولكن ما الحيلة وقد امتدت يد البلاء إلى دين الله ، وحالت بين المؤمنين وبين أوامر الله ؟ .

لابد لهم إذاً من هجرة الوطن ، والفرار بدينهم من الفتن ، وبهذا أمر أصحابه صلوات الله وسلامه عليه .

هاجر المسلمون إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، ثم هاجر صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه بعد ثلاث عشرة سنة ، حمل فيها من الأهوال ، ما تأبى أن تحمله الجبال !

مزايا الهجرة :

لا غرو أن كانت الهجرة منقبة يسمو بها الأولون ، وأمنية يتمناها الآخرون ، ولكن ما الحاجة إليها بعد أن جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأمنوا على

مكتبتنا العربية

دينهم وأنفسهم وأموالهم ؟ فلْيشرح النبى صلى الله عليه وسلم بحديثه هذا صدوراً كانت حرجة ، ولْينزع وساوس كانت مختلجة ، وليبيِّن لمن حزَنه أن لم يكن من السابقين بالمهاجرة ، ولا من التابعين بالمناصرة ، أن الهجرة قد ارتفع حكمها ، ولكن بقى بدلها ، وهو الجهاد والنية . فخذوا من العدو حذركم ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، حتى إذا جد الجد ، واستنفركم الإمام لاعلاء كلمة الله ، وحماية دين الله ، فلا تهنوا ولا تجبنوا ، بل انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله . فإن فاتكم هذا الجهاد فلا تفتكم نيته ، فرب نية خير من عمل . ولكل امرىء ما نوى . قالت عائشة رضى الله عنها ، وقد سألها عُبيد بن عمير الليثى عن الهجرة : إنما كانت الهجرة قبل فتح مكة والنبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، أما اليوم فلا هجرة ، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه الى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم مخافة أن يفتن عليه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الاسلام ، واليوم يعبد ربه حيث شاء ، ولكن جهاد ونية .

حكمها :

نعم ، كانت الهجرة فرضا فى أول الاسلام ، على من أسلم وكان قادرا عليها ؛ ليسلم من أذى الكفار ، ويأمن على دينه ؛ وليعاون إخوانه المسلمين ويكثرهم ، ثم ليجاهد مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ويتعلم منه شرائع الاسلام وأحكامه .

وقد أعظم الله تعالى شأن هذه الهجرة ، حتى قطع الموالاة والنصرة بين من هاجر ومن لم يهاجر ، فقال عزشأنه : «والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من وَلايتهم من شىء حتى يهاجروا» .

أما العاجزون عن الهجرة من أسير ومريض ومن إليهما ، فقد قبل الله عذرهم ، وعفا عنهم ، واستثناهم من الذين ظلموا أنفسهم وباءوا بسخطه ؛ لأنهم المستضعفون حقا « لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » . على أن أحداً من هؤلاء الضعفاء إذا كلف نفسه مالم يكلف فخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ، فقد وقع أجره على الله .

وما زال الأمر كذلك حتى فتحت مكة فنسخ فرض الهجرة ، وبقى فرض الجهاد والنية . وعلى هذا فلا حرج — منذ الفتح إلى أن تقوم الساعة — على من أقام فى دار الكفر مسلما قادرا على عبادة ربه ، سالما من الأذى فى دينه . بل قال الماوردى : إن إقامة هذا أفضل من رحلته ؛ إذ يرجى من وراء إقامته دخول غيره فى دين الله . وهو قول حق تؤيده دلائل الشريعة ، لكن لمن نوى بإقامته إظهار الحق والدعوة إليه وكان أهلا لذلك ، وإلا فهجرته مستحبة ، لتكثير المسلمين ومعونتهم ، وجهاد الكفار ، والأمن من غدرهم ، والراحة من رؤية المنكر بينهم . وقصارى القول أنه لا تحق عليه الهجرة مالم يفتن .

ويذهب ذاهبون الى وجوب الهجرة من بلاد الشرك ، على المسلم القادر مطلقا ، مستندين الى مثل قوله صلوات الله وسلامه عليه : « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين »

مكتبتنا العربية

«لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » . ولكن الحق ما قاله صاحب الفتح إن هذا فيمن خشى الفتنة على دينه . وهذا الذى أشارت اليه عائشة رضى الله عنها ، من قبل .

وكما تنبغى الهجرة من دار الكفر للقادر المتمكن من إقامة دينه ، تنبغى كذلك للجهاد ، والحج ، وطلب العلم ، وابتغاء الحلال من الرزق ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، والعمل على ما يرفع من شأن المسلمين ويعلى مكانهم . وكل هذا من قبيل الهجرة الى الله ورسوله . فاذا تعين شىء منه فلا جدال أنه فرض محتوم لا يتثاقل عنه مؤمن بالله ورسوله .

ومن المؤسف المؤلم أن يسبقنا الأجانب الى الهجرة ودرك أسرارها حيث ينشدون الرفعة لبلادهم ، والعزة لأممهم ، ونحن لا نزيد على أن نتفكه بالنظر اليهم ، كأنهم ما غادروا الديار ، وكابدوا الأسفار ، إلا ليستمتعوا مثلنا ويلهوا !

المهاجر الحق :

وبعد ، فلئن مضت هذه الهجرة الحسية لأهلها ، وذهبت بجلالها وفضلها ، إن الهجرة المعنوية لهى أعلى منها شأنا وأجل عند الله قدرا وأجرا ؛ تلك هى هجرة الروح ، حيث يزكى المرء نفسه ، ويطهر قلبه ، باجتناب المآثم ، واجتناء المكارم ؛ تلك هى الهجرة كل الهجرة التى بينها الرسول الكريم فى جوامع كلمه صلوات الله وسلامه عليه إذ يقول : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» . رواه البخارى .

مكانة الجهاد وأقسامه :

أما الجهاد ، وما أدراك ما الجهاد ؟ ، فهو حصن الاسلام ومُنَّته ، وعصمة الدين وجُنته ؛ اختار الله له خاصة أوليائه ، وبشرهم بجليل نعمه وعطائه « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » .

وآخران لهما منزلة وفضل ؛ هما جهاد النفس والهوى ، وجهاد المنافقين والظلمة . والناس درجات مختلفة باختلاف تفاوتهم فى جهادهم ؛ ولذا كان صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق مرتبة وأرفعهم درجة ، لأنه استوى على صنوف الجهاد كلها ، فجاهد فى الله حق جهاده ، بالقلب واللسان ، والدعوة والبيان ، والسيف والسنان ، ولم يأل جهدا فى نصر الله وإعلاء كلمته . وانظر فى شمائله تفصيل هذا كله .

مكانة النية من العمل :

وأما النية فهى من الأعمال بمنزلة الروح من الجسد ، وحسبها فضلا أنها تغنى عن العمل ، دون أن يغنى عنها عمل « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

مكتبتنا العربية

الفلسفة الاسلامية فى الشرق

— ٦ —

فلسفة ابن سينا العملية

(١) الأخلاق

تفاؤل ابن سينا :

يعتبر ابن سينا فى طليعة الأخلاقيين المتفائلين فى عصره ، فقد قرر أن كل ما فى الكون خير بالجوهر ، وأن ما يشاهد فيه من شر هو خير ؛ لأن الخير الأساسى لايتحقق إلا ممتزجا بشيء عارض مما يحسبه الناس شرا ، لتصادمه مع أغراض الأفراد . ولو أنهم كانوا أكثر دقة لما جعلوا مصالح الأفراد مقياسا للخير والشر ، بل لجزموا بأن صلاح الكل العام هو المقياس لهما ، ولنظروا إلى خير المجموع دون اكتراث بالأجزاء ، وأيقنوا بأن الفساد الجزئى ليس شراً أساسياً ، بل هو لعارض كقيام مانع أو تخلف شرط ضرورى للانتقال من القوة إلى الفعل ، أو كسوء استخدام للمشتمل على الخير بقابه شراً بسبب جهل أو تحول عن الفطرة الصالحة ، أو هو وسيلة طبيعية لتحقق الخير العام .

وعلة عموم الخير فى الكون كله هى علاقته بالبارى ، والعنصر الجوهرى لهذه العلاقة هو العناية الصمدانية التى شملت الكون منذ الأزل شمولا سرمديا لاينقطع ولا يقل ، والتى هى مأتى نظامه وصلاحه وسريان الخير فيه وسيره نحو الكمال . ولهذا رأى أن وجوب الصلاح والخير فى هذا الكون أمر لا بد منه ، وإلا لوجد الفساد والشر حيث توجد العناية الربانية ، وهذا مالا يقول به عاقل . غير أن معنى العناية عنده ليس هو الذى يفهمه المتكلمون من هذه الكلمة . وإنما العناية هى ما يلزم ضرورة من علم البارى بذاته وإحاطته بأنه غاية كل كمال . وبالتالى بأنه يستحيل صدور النقص أو الشر عنه . وهو فى هذا يقول :

« إشارة . فالعناية هى إحاطة علم الأول بالكل وبالواجب أن يكون عليه الكل حتى يكون على أحسن النظام وبأن ذلك واجب عنه وعن إحاطته به ، فيكون الموجود وفق العلوم على أحسن النظام من غير انبعاث قصد وطلب من الأول الحق ، فعلم الأول بكيفية الصواب فى ترتيب وجود الكل منبع لفيضان الخير فى الكل » . . . . « إشارة : الأمور الممكنة فى الوجود منها أمور يجوز أن يتعرى وجودها عن الشر والخلل والفساد أصلا ، ومنها أمور لايمكن أن تكون فاضلة فضيلتها إلا ويكون بحيث يعرض منها شر عند ازدحامات الحركات ، ومصادمات المتحركات . وفى القسمة أمور شرية إما على الإطلاق ، وإما بحسب الغلبة . وإذا كان الجود المحض مبدأ لفيضان الوجود الخيرى الصواب ، كان وجود القسم الأول واجبا فيضانه مثل وجود الجواهر العقلية وما يشبهها . وكذلك القسم الثانى يجب

مكتبتنا العربية

فيضانه ، فإن فى ألا يوجد خير كثير ولا يؤتى به تحرزا من شر قليل ، شرا كثيرا ، وذلك مثل خلق النار ، فإن النار لا تفضل فضيلتها ولا تكمل مؤونتها فى تتميم الوجود إلا أن يكون بحيث تؤذى وتؤلم ما يتفق لها مصادفته من أجسام حيوانية » (١) .

رأيت من هذه الأشارة الأخيرة أن كل شيء فى الوجود إما خير محض، وإما خير فى أصله والشر عارض فيه كالنار التى مثل بها ، فأبان أن خيريتها المقصودة لاتكمل إلا إذا بلغت درجة الإحراق ، وأن إحراقها ما يمسها لا يطعن فى هـذه الخيرية ، لأنه شر عارض ، مصدره جهل أو سوء تصرف أو فعل مقصود للطبيعة الحكيمة أريد به تضحية الجزء من أجل الكل ، أو الأفراد من أجل المجموعة . وإذاً ، فلا يملك إنسان إصدار حكم مطلق بشرية الأشياء بناء على ما يراه من نتائجها التى هى وليدة الظروف لا وليدة الطبيعة ، وإنما يجب أن يجزم بأنها كلها خير ، لأنها صادرة عن الخير المحض .

لا نرانا بعد ذكر هذا الرأى لابن سينا فى حاجة إلى أن نلمح على أنه لأرسطو بقضه وقضيضه لم يزد عليه فيلسوفنا أكثر من أنه دثره بثياب التعبيرات الاسلامية كأن أحل العناية الربانية محل حكمة الطبيعة وما شاكل ذلك ، إذ أن حكيم استاجيرا قد قرر من قبل أن الطبيعة لا تحرك غصنا من شجرة فى الكون إلا لحكمة ، وأن لكل كبيرة أو صغيرة من أفعالها غاية ظاهرة أو مستترة ، وأن إفساد المطر الحبوب التى فى المخازن أو تخريبه بيت العجوز الفقيرة لا يدرجه فى سلك الشر ، لأن حكمة وجوده خير عام ، والضرر الذى نشأ منه شر خاص(٢) .

الفضائل :

لا يكاد رأى ابن سينا فى الفضائل يختلف عن آراء أسلافه ، إذ حصرها فى أنواع أربعة وهى : الحكمة والشجاعة ، والعفة والعدالة ، ووضع تحت كل نوع من هذه الأنواع طائفة من الفضائل الثانوية جعلها بمثابة الأفراد التى تتألف منها هذه الأنواع ثم انتهى بها جميعها إلى العدالة ، لأنها هى قصوى غايات القوى النفسية ، وقد صدر هذه الفضائل بالعلم لأنه أساسها كلها ولم يقتصر على علم خاص ، بل فرض العلوم التى نص عليها الفلاسفة القدماء فى كتبهم ، ثم جعل هذه العلوم أساسا ضروريا لتكميل القوة النظرية فى الإنسان ، كما جعل الفضائل الاربع السالفة الذكر شطوراً لتحقيق كمال القوة العملية فيه ، ثم جعل القسمين معاً شرطا للسعادتين . وقد تبع أفلاطون مقرر أن النفس مؤلفة من ثلاث قوى : الأولى المميزية ، وفضيلتها الرئيسية هى الحكمة ؛ الثانية الغضبية ، وفضيلتها الرئيسية هى الشجاعة ؛ الثالثة الشهوية ، وفضيلتها

(١) انظر المسألتين : السابعة والثامنة من النمط السابع من كتاب « الاشارات » .

(٢) انظر الباب الثامن من الكتاب الثانى من علم الطبيعة لارسطو : أو صفحة ٨٢ من الجزء الثانى من الفلسفة الاغريقية لكاتب هذا المقال .

مكتبتنا العربية

الرئيسية هى العفة . ولكل من هذه الفضائل الرئيسية وسائل أو فضائل ثانوية ، وغايتها التى تتجه إليها جميعها هى العدالة . وهاك عبارته فى هذا :

« فإن المعتنى بأمر نفسه ، المحب لمعرفة فضائله وكيفية اقتنائها لتزكو بها نفسه ، ومعرفة الرذائل وكيفية توقيها لتطهر منها نفسه ، المؤثر لها أن تسير بأقصد السير ، فيكون قد وفى إنسانيته حقها من الكمال ، المستعد للسعادة الدنيوية والأخروية ، يجب عليه تكميل قوته النظرية بالعلوم المحصاة المشار إلى غاية كل واحد منها فى كتب إحصاء العلوم ، وتكميل قوته العملية بالفضائل التى أصولها : العفة والشجاعة والحكمة والعدالة المنسوبة إلى كل قوة من قواه ، وتجنب الرذائل التى بإزائها . أما العفة فإلى الشهوانية ، والشجاعة إلى الغضبية ، والحكمة إلى التمييزية ، والعدالة إليها مجموعة عند استكمال كل واحدة بفضيلتها وفروعها التى إما كالأنواع لها ، أو كالمركب منها ، وهى : السخاء والقناعة والصبر والكرم والحلم والعفة والصفح والتجاوز ورحب الباع وكتمان السر والحكمة والبيان والفطنة وأصالة الرأى والحزم والصدق والوفاء والود والرحمة والحياء وعظم الهمة وحسن العهد والتواضع » .

(٢) التنسك عنده :

على الرغم من أن ابن سينا تأثر فى أكثر آرائه بأرسطو الحقيقى ، نشاهد له طائفة من الآراء تأثر فيها بأرسطو المزيف ، أو بملفقات الأفلاطونية الحديثة ، وذلك كالجانب التنسكى بقسميه : النظرى والعملى . فحين يستعرض الباحث الأجزاء الأخيرة من كتبه يلفت نظره مايصطدم به فيها من حديثه عن الوحى والإلهام والرياضة ، ومن قوله بأن الفضيلة تستطيع أن تكشف للنفس أسرار الكون ، وبأن الإلهام الذى يختص به الأخيار من عباده هو إحدى وسائل المعرفة البشرية ، وبأن النبوة مكتسبة يفوز بها كل من توفرت فيه شروطها ، فيحس بأن الهوة بينه وبين أرسطو قد اتسعت ، وبأنه قد أخذ يدنو من أفلاطون وأفلوطين بخطوات واسعة .

على أنه ينبغى لنا أن نقرر هنا أن آراءه فيما ينجم عن الرياضة من معرفة تختلف كل الاختلاف عن آراء الغزالى ومن نحوا نحوه فى هذه المشكلة ، إذ أن الفضيلة عند ابن سينا ليست كل شئ للوصول إلى إدراك الخير والشر ، بل إن الثقافة شرط أساسى يجب أن يسبق الفضيلة ، لأن التنسك مع الجهل عنده لايجدى مادام أن العلم هو وحده الذى يؤهل النفس إلى انطباع العالم العقلى فيها ، بينما أن المتصوفين الآخرين يجزمون بأن الرياضة وحدها كافية لانكشاف الحقائق أمام النفس . وليس من العسير على الباحث أن يجد أصول رأى المتصوفين بين آراء أفلاطون وأفلوطين ونساك الهند والمسيحيين ، كما أنه ليس عسيراً عليه أن يتبين فى رأى ابن سينا صورة جلية من تلفيق الأفلاطونية الحديثة التى وضعت ثقافة أرسطو إلى جانب رياضة أفلاطون وتنسك أفلوطين ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

مكتبتنا العربية

المدخل

إلى دراسة الفلسفة الإسلامية

هذا العمل الذى رأيت أن أشتغل به هذا العام المبارك من أعوام مجلة الأزهر ، هو تقديم ترجمة أو ملخص واف دقيق لهذا الكتاب ، الذى جعلت اسمه عنوانا ، والذى وضعه مؤلفه ليكون مدخلا لابد منه لمن يريد دراسة الفلسفة الإسلامية من المسلمين وغير المسلمين . والمؤلف هو الدكتور والأستاذ « ليون جوتييه — Léon Gauthier » ، أحد المستشرقين المعروفين الذين نشروا بعض آثار فلاسفة الإسلام وترجموا شيئاً منها إلى الفرنسية ، ونفذوا إلى حد كبير إلى الروح أو العقلية الإسلامية وتعمقوا فى دراستها . لذلك يكون لبحثه فى هذه الناحية قيمته ، ولآرائه تقديرها . ولذلك رأيت أن من الخير تقديم كتابه إلى طلاب الفلسفة الإسلامية ، ومن يعنون بدراستها ، ليكون الطريق أمامهم ممهداً واضحاً ، فيسيروا إلى الغاية من غير زيغ أو التواء .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

والفكرة التى هيمنت على المؤلف وقام عليها عمله ، هى أن الفلسفة الإغريقية ، وهى الأساس للفلسفة الإسلامية ، تعتبر أسمى ماوصلت اليه العقلية الآرية فى التفكير ؛ وأن الإسلام هو خير ماخلّفت العقلية السامية للإنسانية من تراث وأنضج ثمراتها ؛ وأن بين هاتين العقليتين تعارضاً ، حاداً حيناً وغير حاد حيناً آخر ، فى جميع ماتعارفنا عليه : من طرائق فى الأكل وألوانه ، والزيارات وربط العلاقات الاجتماعية ، واللغة والفن والتفكير ، أى فى جميع مظاهر الحياة من أدناها إلى أعلاها ؛ وأنه من أجل هذا كان الخلاف بين الفلسفة الإغريقية ، التى قامت عليها فلسفة المسلمين ، وبين الدين الإسلامى ؛ وأنه من أجل ذلك كله كان أنضج ثمار تفكير الفلاسفة المسلمين هو العمل على التوفيق بين هذين الطرفين المتعارضين . هذا العمل الذى تركز فيه وفى سبيله فلسفة الفلاسفة المسلمين ، وتساءل كثير من دارسى الفلسفة الإسلامية عن بواعثه وأسبابه ، والذى نجده مشتركا بين كل هؤلاء الفلاسفة من غير استثناء .

لهذه العوامل كلها قسم المؤلف الكتاب إلى ثلاثة فصول ، وجعل بعدها ملحقاً . ففى الأول تحدث عن العقلية السامية والعقلية الآرية ، وفى الثانى عن الفلسفة الإغريقية ، وفى الثالث كان الحديث عن الدين الإسلامى . وهو فى هذين الفصلين كان يعنى برسم الخطوط البارزة ، وتوضيح المميزات الهامة ، وبيان المشاكل الأساسية . أما الملحق فقد خصصه

مكتبتنا العربية

للحديث بإيجاز عن أهم محاولات الفلاسفة المسلمين التوفيق بين الدين والفلسفة ، وهي محاولة ابن رشد فيلسوف الأندلس الأشهر .

ومن الطبيعي ألا نفكر ، ونحن بسبيل هـذا العمل المحدود ، في البت في أول مسألة تخطر ببال من يتحدث عن الفلسفة الإسلامية ولو من بعض نواحيها ، أعني المسألة التي اشتجر فيها الخلاف قديماً وحديثاً ، وهي : هل هناك فلسفة إسلامية تناولت المشاكل الفلسفية بمنهج مبتكر « Original » وطريقة خاصة بالفلاسـفة المسلمين ؟ أو الأمر لايعدو أن يكون نقلا للفلسفة الإغريقية وكتابة لها باللغة العربية ؟ على أنه ربما كان خيراً أن نذكر في هذا كلمة جد قصـيرة .

* * *

الخلف في هـذه المسألة خلف قديم وحديث كما قلنا ، وهـو خلف أو خلاف له سدنة وأنصار من المسلمين وغير المسلمين ، وكل يحاول أن يسند نظريته ويعللها بمختلف الأسباب والأدلة . فمن الأولين نجد الشهرستاني ؛ إذ يذهب إلى أن العرب لم يعرفوا الفلسفة إلا بعد الاسلام عن الروم ، فهم الأصل والناس عيال عليهم فيها ؛ كما يذكر عند الكلام على الحكماء أن « الصنف الثاني منهم حكماء العرب ، وهم شرذمة قليلة ، وأكثر حكمتهم فلتات الطبع وخطرات الفكر » .

ومن الآخرين المفكر الفرنسي المعروف « رينان — Renan » ، الذي يرى « أنه من الأفراط السيء أن نعطي اسم الفلسفة العربية لفلسفة ليست إلا عارية من اليونان ، والتي ليس لها أصل مطلقا في الجزيرة العربية ، هذه الفلسفة ليست إلا الفلسفة الأغريقية كتبت باللغة العربية ، وهذا هو كل شيء ! » (١) وإذاً ، فالفلاسفة المسلمون في رأيه لم يكونوا إلا نقلة لتراث اليونان ، أووسطاء حفظوا هذا التراث ونقلوه إلى أوربا في العصور الوسطى . ولهذا نراه يؤكد في مؤلف آخر له أن العرب لم يختاروا أرسطو عن أفلاطون وغيره من الفلاسفة اليونان ، لأنه لم يكن هناك — أي حين الترجمة — اختيار عن تفكير ، بل إنهم قبلوا الثقافة اليونانية كما وصلت إليهم [٢] . على أن هذا الفيلسوف ، مع هـذا وذاك ، يرى أن الفلسفة الحقيقية في الإسـلام يجب أن يبحث عنها في علم الكلام ، وإن كان المسلمون لم يسموا تلك المناقشات الكلامية فلسفة [٣] .

---

[١] عن كتابه « التاريخ العام للغات السامية » ص ١٠ من الطبعة الثامنة بباريس .

[٢] عن كتابه « ابن رشد ومذهبه » بالفرنسية ص ٩٣ .

[٣] نفس المرجع ص ٨٩ .

مكتبتنا العربية

فإذا تركنا «رينان» وأمثاله، الذين لا يرون فى الفلسفة الإسلامية إلا الفلسفة الأغريقية كما فهمها المسلمون، نرى آخرين أمثال «جوستاف دوجا» الذى يقول فى كتابه (تاريخ الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين): «وما أسوق إلا شاهدا واحدا؛ فهل يظن ظان أن عقلا كعقل ابن سينا لم ينتج فى الفلسفة شيئا طريفا، وأنه لم يكن غير مقلد لليونان! وهل مذاهب المعتزلة والأشعرية ليست ثمارا بديعة أنتجها الجنس العربى». [١] كما نجد مسيو «ريتير Ritter» يؤكد، مع آخرين مثله، أنه كان للاسلام فلسفة من الممكن أن تسمى بلا ريب فلسفة إسلامية.

على أن الباحث لا يسعه إلا أن يرى بوضوح أن «رينان» تناقض مع نفسه، فيما قرره أولا من أن تاريخ الفكر لا يستطيع أن يعرف أنه كانت هناك فلسفة عربية، إذ يقول فى موضع آخر: «إن العرب متعلقون بشرحهم لأرسطو، مثلهم مثل كل الفلاسفة المدرسيين، عرفوا أن يخلقوا كل فلسفة مليئة من العناصر الخاصة، ومختلفة جدا بكل تأكيد عن الفلسفة التى كانت تعلم فى الليسيه [٢].

أما عن تفضيل المسلمين لأرسطو وفلسفته، وأن هذا كان عن تفكير أو انساقوا اليه اعتباطا، فيكفى أن نرد على رأى «رينان» بما رآه مستشرق آخر ثقة فيما يقول، وهو العلامة «مونك ـ Munk» وقوله أقرب الى الحق: «لقد اختار العرب أرسطو من بين الفلاسفة الآخرين عن تفضيل بلا ريب، لأن منهجه التجريبى يتفق ونزعتهم العلمية والواقعية أكثر من مذهب أفلاطون المثالى، ولأن منطقه اعتبر سلاحا له خطره فيما كان من نزاع عنيف دائم بين المدارس الكلامية واللاهوتية المختلفة [٣]»، وكان من تفضيل المسلمين المذهب التجريبى الأرسطى على المذهب المثالى الأفلاطونى، أنهم لم يأخذوا من هذا الأخير إلا ما يسد ثغرات مذهب أرسطو إلا فى القليل النادر.

وهكذا؛ أخذت صيحة العصبية الدينية والجنسية تخف بمضى الزمن قليلا قليلا، ثم خفت فى أواخر القرن التاسع عشر، حتى إذا ما أقبل القرن العشرون كاد ينعقد الاجماع، بين مؤرخى الفلسفة فى الغرب، على أن الفلسفة الاسلامية قد كملت نقص فلسفة أرسطو فى بعض نواحيها، وعلى أنه ظهر فى الاسلام فلاسفة بكل معنى الكلمة [٤].

---

[١] عن محاضرات الاستاذ الكبير مصطفى باشا عبد الرازق المخطوطة، نقلا عن كتاب تراث الاسلام جـ ١ ص ٣٢٤.

[٢] ابن رشد ومذهبه ص ٨٩

[٣] أمشاج من الفلسفات اليهودية والعربية ص ٣١٢

[٤] مذكرات الاستاذ الكبير مصطفى باشا عبد الرازق عن كتاب «تراث الاسلام».

مكتبتنا العربية

والآن ، بعد هذه الكلمة التى أشرنا بها الى المشكلة التى تعترض أول الأمر الباحث فى الفلسفة الاسلامية ، أى الخاصة بوجود فلسفة إسلامية أو عدم وجود فلسفة تستحق هذا الاسم ، نأخذ فيما اليه قصدنا من تقديم كتاب « المدخل الى الفلسفة الاسلامية .

« Introduction à l'étude de la philosophie Murulmane »

بادئين بكلمة جعلها المؤلف تصديرا للكتاب .

التصدير

إن البحث المنشور هنا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيناها فى عام ١٩٠٧ — ١٩٠٨ م بمدرسة الآداب العليا بالجزائر ، التى أصبحت كلية بعد ذلك ، وكان عنوان هذه المحاضرات : « الفلاسفة المسلمون والدين الاسلامى » ، وأغلب المسائل التى تناولناها بالبحث فى هذا الكتاب كنا قد عالجناها من قبل فى دروس الأعوام السابقة ، وكانت المخطوطة معدة للطبع منذ عام ١٩٠٩ م ، لكن الظروف حالت دون النشر حينئذ ، وفى هذه الأيام عمدنا الى نشرها من غير تعديلات ، ولذلك وقفنا بالمراجع عند هذا التاريخ ؛ ورجاؤنا ألا يكون هذا التأخير قد أضعف من أهمية البحث وقيمته ، ومطابقته لما يكون قد جد من الأحوال .

ولا غرو ، فان من موضوع هذا العمل بحث الطابع المميز للعقلية السامية بالنسبة إلى العبقرية الآرية ، وعلى الأخص العبقرية العربية بالنسبة إلى العبقرية اليونانية ، حتى نستطيع أن نلقى ضوءا على العوامل التى طرأت أمام الفلاسفة المسلمين الذين تخصصوا فى التفكير اليونانى عند تناولهم المسائل ذات الطابع الفلسفى ، وخصوصا المسألة التى كانت تعد فى المرتبة الأولى من الأهمية فى عصرهم وفى بيئاتهم وهى التوفيق بين الفلسفة اليونانية والدين الاسلامى .

لقد ظلت المسألة كما هى منذ عام ١٩٠٩ م ، فلا نعد إذن متأخرين إذا شرعنا فى نشر هذا الكتاب فى هذه الأيام بعد ظهور المؤلفات العظيمة التى وضعها علماء الاجتماع ، من أمثال « دوركهايم » و « ليفى بريهل » .

الحديث موصول

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

مكتبتنا العربية

والآن ، بعد هذه الكلمة التى أشرنا بها الى المشكلة التى تعترض أول الأمر الباحث فى الفلسفة الاسلامية ، أى الخاصة بوجود فلسفة إسلامية أو عدم وجود فلسفة تستحق هذا الاسم ، نأخذ فيما اليه قصدنا من تقديم كتاب « المدخل الى الفلسفة الاسلامية .

« Introduction à l'étude de la philosophie Muruhmane »

بادئين بكلمة جعلها المؤلف تصديرا للكتاب .

التصدير

إن البحث المنشور هنا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيناها فى عام ١٩٠٧ — ١٩٠٨ م بمدرسة الآداب العليا بالجزائر ، التى أصبحت كلية بعد ذاك ، وكان عنوان هذه المحاضرات : « الفلاسفة المسلمون والدين الاسلامى » ، وأغلب المسائل التى تناولناها بالبحث فى هذا الكتاب كنا قد عالجناها من قبل فى دروس الأعوام السابقة ، وكانت المخطوطة معدة للطبع منذ عام ١٩٠٩ م ، لكن الظروف حالت دون النشر حينئذ ، وفى هذه الأيام عمدنا الى نشرها من غير تعديلات ، ولذلك وقفنا بالمراجع عند هذا التاريخ ؛ ورجاؤنا ألا يكون هذا التأخير قد أضعف من أهمية البحث وقيمته ، ومطابقته لما يكون قد جد من الأحوال .

ولا غرو ، فان من موضوع هذا العمل بحث الطابع المميز للعقلية السامية بالنسبة إلى العبقرية الآرية ، وعلى الأخص العبقرية العربية بالنسبة إلى العبقرية اليونانية ، حتى نستطيع أن نلقى ضوءا على العوامل التى طرأت أمام الفلاسفة المسلمين الذين تخصصوا فى التفكير اليونانى عند تناولهم المسائل ذات الطابع الفلسفى ، وخصوصا المسألة التى كانت تعد فى المرتبة الأولى من الأهمية فى عصرهم وفى بيئاتهم وهى التوفيق بين الفلسفة اليونانية والدين الاسلامى .

لقد ظلت المسألة كما هى منذ عام ١٩٠٩ م ، فلا نعد إذن متأخرين إذا شرعنا فى نشر هذا الكتاب فى هذه الأيام بعد ظهور المؤلفات العظيمة التى وضعها علماء الاجتماع ، من أمثال « دوركهايم » و « ليفى بريهل » .

الحديث موصول

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

مكتبتنا العربية

حياة رجالات الإسلام

خالد بن الوليد

— ٣ —

فى حديث إسلام خالد بن الوليد رضى الله عنه ، كما سقناه فى مقالنا السابق ، أفانينُ من مجالات البحث وألوان العبقرية المحسة بذاتها ، الشاعرة بقيمتها فى الحياة .

وأول ما يطالع الباحث من ذلك ، الشعورُ النفسى الذى اضطرمت به نفس البطل العظيم فى مرحلة الانتقال من دين الآباء والأجداد ، وعقيدة الأوثان والأنداد ، الى دين الاسلام وعقيدة التوحيد ، وهى مرحلة من أشد مراحل الحياة على النفوس القوية ، لأنها مرحلة يتسلط فيها الشك المريب على نفس الانسان فيذيبها على ما فيها من عقيدة وإيمان موروث ، ثم يخرجها خالية من الصور والأحاسيس ، حتى إذا أتاها اليقين بشواهد الحق تمثلت فى مرآتها آيات الايمان باهرة قاهرة .

كذلك بدأ إيمان بطل الاسلام خالد بن الوليد رضى الله عنه ، فهو قد شك وألح فى هذا الشك ، شك فيما هو عليه من دين وعقيدة ، وشك فى مواقفه التى وقفها دفاعا عن ذلك الدين الذى لا يعرف ماهو ، سوى أنه دين الوليد ، ودين قريش ، ودين العرب ، ثم انتقل من الشك إلى أول درجات الإيمان ، فعرف أنه كان فى مواقفه كلها التى وقفها معانداً للاسلام موضعا فى غير شىء لأنه يمشى الى غير هدف ، فماذا إذن هذا قلبه قد خلا من الماضى ، ولكنه لا يستطيع أن يخليه من عقيدة ينطوى عليها ، وأى عقيدة تلك التى يرتضيها لنعمر قلبه ؟ وهنا يبدأ طور جديد من الشك ، ولكنه شك لعله أهدأ من الشك الأول ، لأن ذاك اقتلاع لجذور متأصلة ، وهذا اختيار لعقيدة جديدة تملأ فراغ قلبه . ويصور لنا خالد رضى الله عنه هذا الطور بارع ما يمكن أن تصور به نفس حائرة تتنازعها عوامل متجاذبة فيقول : « فلما صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا بالحديبية قلت فى نفسى : أى شىء بقى ؟ أين أذهب ؟ إلى النجاشى ؟ فقد اتبع محمدا ، وأصحابه عنده آمنون ، فأخرج الى هرقل ؟ فأخرج من دينى الى نصرانية أو يهودية ، فأقيم فى عجم ، فأقيم فى دارى بمن بقى ؟ فأنا فى ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله » . كانت هذه الحيرة تمحيصا لنفس خالد ، وإعدادا لها لتستقبل حياتها الجديدة ، ولتواجه الحياة بوجه جديد تعرف به بين أبطال العبقرية الاسلامية الخالدة :

مكتبتنا العربية

والأمر الثانى الذى يلفت النظر فى حديث إسلام خالد رضى الله عنه : ذلك الكتاب الذى كتب به الى خالد أخوه الوليد بن الوليد ، وكان قد دخل فى الاسلام وطلب خالدا فى مكانه مع المؤمنين فلم يجده ، وفيه يقول : « فانى لم أر عجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك » . هذه العبارة تصور شخصية خالد ومكانته وامتيازه فى قومه بعقل قارح ورأى نافذ ، ومن هذا الكتاب يظهر احتفاء النبي صلى الله عليه وسلم بخالد وتقديره لعبقريته وعرفانه لحق بطولته ، فيسأل عنه ويعجب لاعراضه عن الاسلام ، ويرى أنلو كان خالد جعل نكايته وحده مع المسلمين لكان خيرا له ويقدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم على غيره من أبطال المسلمين ، وفى ذلك من التقريظ والثناء ما ليس بعده غاية ، وفيه شهادة عظمى على ما كان يحتله خالد من مكانة سامية ، وما كان ينتظره منه الاسلام فى بطولته .

والأمر الثالث فى هذا الحديث : أن إسلام خالد رضى عنه كان عن فكر مقتنع ورأى مدبر وكرامة موفرة ، فهو إذ يلقى داهية العرب عمرو بن العاص فى طريق الهداية ، وقد بدره عمرو بهذا السؤال ليكشف به خبيئة نفسه ، وهو أعلم به ومقامه فى قريش « يا أبا سليمان أين تريد ؟ » ولو كان غيره ما سأله عمرو ولا التفت إليه ، فأجابه خالد جواب الرجل الذى جمل عقله قائده ، فلم يتأثر أحدا ، ولم يخش أحدا ، ولكنه آمن لأن دلائل الحق أنارت جوانب نفسه وفتحت قلبه وأيقظت ضميره ، فقال « والله لقد استقام الميسم ، وإن محمداً لنبى ، أذهب فأسلم فحتى متى ؟ » ويفصح عن ذلك أكمل إفصاح مقاولة عكرمة بن أبى جهل له ليصده عن الاسلام ، قال عكرمة بعد أن أطلعه خالد على ذات نفسه رجاء صحبته : « قد صبوت ياخالد ، فقال خالد : أصب ولكنى أسلمت ، قال عكرمة : والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت ، قال خالد ولم ؟ قال عكرمة : لأن محمدا وضع شرف أبيك وقتل عمك وابن عمك ببدر ، فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد ، أما رأيت قريشا يريدون قتاله ؟ قال خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها ، لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق » .

والأمر الرابع فى هذا الحديث : استقبال النبي صلى الله عليه وسلم لخالد وصاحبيه ، عمرو ابن العاص ، وعثمان بن طلحة الحجبى ، فإنه قال حين رآهم « رمتكم مكة بافلاذ كبدها » . وهذا أول وسام من أوسمة الشرف والسؤدد تقلده خالد بن الوليد فى الاسلام وشاركه فيه فتى سهم ، وفتى عبد الدار رضى الله عنهم ، وهى كلمة من نوابغ الكلم النبوى تأخذ بضبعى فتى مخزوم خالد بن الوليد الى ما يستقبله من شرف ونبل فى ظلال الاسلام ، وهى إذا صورت خالدا وصاحبيه فى السريداء من وجاهة مكة وعزتها ومجدها فإنما تعنى وصل هذا المجد بمجد الخلود مسطورا فى صحائف البطولة الظافرة وسمع الدنيا وبصرها .

والأمر الخامس فى حديث إسلام خالد رضى الله عنه : تلك الرعاية التى اختص بها النبي

مكتبتنا العربية

صلى الله عليه وسلم خالدا ، وسروره باسلامه وتقريبه وإظهار فضيلته فى عقله وشجاعته : قال خالد : « فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى فقال : أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بك فسر بقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه فما زال يتبسم إلىّ حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة فرد علىّ السلام بوجه طلق » . وهنا يقف خالد رضى الله عنه ليسمع رسول الله صلى الله وسلم يملى عليه السطر الأول من كتاب البطولة وسفر العبقرية الخالدية فى مشهد من المهاجرين والأنصار مصورا فى تلك الكلمة البارعة التى قالها النبى صلى الله عليه وسلم لخالد بعد أن شهد شهادة الحق « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا الى خير » . وقد تسنم خالد بذلك التاج الذى توجه به النبى الأمين ذروة الحياة الجديدة وهو لما يزل فى أولى درجاتها ، وما كان الاسلام وهو دين الهدى والنور ، وشريعة العزة والكرامة ، ليهدر خصائص الأفراد التى كانت لهم قبل إشراقه فى أرجاء نفوسهم ما دامت تلك الخصائص مما يسمو بالانسانية ويعزها ، وخصيصة العقل التى أشاد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بطل الاسلام خالد رضى الله عنه من الكمالات التى لا تحدها الأمكنه ولا تخضع لقيود الأزمان ، فهل من حرج إذن أن يعرف خالد لنفسه قيمتها ويضعها من الشرف والسيادة موضعها ، ويفصح عن ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى ؟ قال خالد رضى الله عنه : « والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بى أحدا من أصحابه فيما حزبه » .

أجل ، لهذا أراد الاسلام خالدا ، ولهذا زكى رسول الله صلى الله عليه وسلم خالدا وأثنى عليه ، ومثل خالد إنما يراد للشدائد يكشفها وللبطولة يمثلها ؛ قال ابن عبد البر فى الاستيعاب وتابعه ابن الأثير فى أسد الغابة « ولم يزل خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنة الخيل فيكون فى مقدمتها فى محاربة العرب » . وحسبنا أن النبى صلى الله عليه وسلم سماه «سيف الله» ؛ روى ابن عبد البر عن عبد الله بن أبى أوفى قال : اشتكى عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا خالد لم تؤذى رجلا من أهل بدر ، لو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله ؟ » قال : يا رسول الله إنهم يقعون بى فأرد عليهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم «لا تؤذوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار» . وروى عن ابن عباس أنه قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر كلام ، فقال عمار : لقد هممت ألا أكلمك أبدا ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا خالد مالك ولعمار رجل من أهل الجنة ، قد شهد بدرا » ، وقال لعمار « إن خالدا يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار » قال خالد : فما زلت أحب عمارا من يومئذ . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا ، فجعل الناس يمرون ، فيقول رسول الله

مكتبتنا العربية

صلى الله عليه وسلم « من هذا ؟ » فأقول : فلان ، حتى مر خالد بن الوليد ، فقال « من هذا ؟ » قلت : خالد بن الوليد ، فقال : « نعم عبد الله هذا سيف من سيوف الله » .

وكان خالد رضى الله عنه من خيار الصحابة ، شديد الثقة بالله تعالى ، وكان مجاب الدعوة ؛ قال ابن حجر فى الاصابة : لما قدم خالد بن الوليد الحيرة أتى بسم فوضعه فى راحته ثم سمى وشربه فلم يضره . وقال أيضا : روى ابن أبى الدنيا باسناد صحيح عن خيثمة قال : أتى خالد بن الوليد رجل معه زق خمر فقال : اللهم اجعله عسلا ، فصار عسلا .

الى هنا نقف بالحديث عن أوائل خالد وإسلامه ، ونفتح كتاب عبقريته الغامرة ، ونملى من صفحات بطولته الباهرة أسطرا ليقرأ فيها الشباب المسلم آيات البراعة فى سياسة الحروب وقيادة الجيوش قيادة مظفرة ليستخلصوا منها الأسوة النافعة والعظة البالغة ؟

صادق ابراهيم عرجون

تصوير نفسية المفتونين

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو من عيون حكمه :

« لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة لطول الأمل ، ويقول فى الدنيا بقول الزاهدين ، ويعمل فيها بعمل الراغبين ؛ إن أعطى منها لم يشبع ، وإن منع لم يقنع ، يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ؛ ينهى ولا ينتهى ، ويأمر بما لا يأتى ؛ يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم ، ويبغض المسيئين وهو منهم ؛ يكره الموت لكثرة ذنوبه ، ويقيم على ما يكره الموت له ؛ إن سقم ظل نادما ، وإن صح أمن لاهيا ؛ يعجب بنفسه إذا عوفى ، ويقنط إذا ابتلى ؛ تغلبه نفسه على ما يظن ، ولا يغلبها على ما يستيقن ، ولا يثق بالرزق بما ضمن له ، ولا يعمل من العمل بما فرض عليه ؛ إن استغنى بطروفتن ، وإن افتقر قنط وحزن ؛ فهو من الذنب والنعمة موقر ؛ يبتغى الزيادة ولا يشكر ، ويتكلف من الناس ما لم يؤمر ، ويضيع من نفسه ما هو أكثر ؛ ويبالغ إذا سأل ، ويقصر إذا عمل ؛ يخشى الموت ، ولا يبادر الفوت ؛ يستكثر من معصية غيره ما يستقله من نفسه ، ويستكثر من طاعته ما يستقله من غيره ؛ فهو على الناس طاعن ، ولنفسه مداهن ؛ اللغو مع الأغنياء ، أحب إليه من الذكر مع الفقراء ؛ يحكم على غيره لنفسه ، ولا يحكم عليها لغيره ، وهو يطاع ويعصى ، ويستوفى ولا يوفى » .

نقول : إن هذه القطعة من كلام الامام أبى الحسن عليه السلام قد جمعت من عناصر النفسيات المفتونة ، فى بيان يخلب القلوب ، وحكمة تستهوى العقول ، مالم يجمعه غيره فيما نعلم .

مكتبتنا العربية

صلى الله عليه وسلم « من هذا ؟ » فأقول : فلان ، حتى مر خالد بن الوليد ، فقال « من هذا ؟ » قلت : خالد بن الوليد ، فقال : « نعم عبد الله هذا سيف من سيوف الله » .

وكان خالد رضى الله عنه من خيار الصحابة ، شديد الثقة بالله تعالى ، وكان مجاب الدعوة ؛ قال ابن حجر فى الاصابة : لما قدم خالد بن الوليد الحيرة أتى بسم فوضعه فى راحته ثم سمى وشربه فلم يضره . وقال أيضا : روى ابن أبى الدنيا باسناد صحيح عن خيثمة قال : أتى خالد بن الوليد رجل معه زق خمر فقال : اللهم اجعله عسلا ، فصار عسلا .

الى هنا نقف بالحديث عن أوائل خالد وإسلامه ، ونفتح كتاب عبقريته الغامرة ، ونملى من صفحات بطولته الباهرة أسطرا ليقرأ فيها الشباب المسلم آيات البراعة فى سياسة الحروب وقيادة الجيوش قيادة مظفرة ليستخلصوا منها الاسوة النافعة والعظة البالغة ؟

صادق ابراهيم محمود

تصوير نفسية المفتونين

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو من عيون حكمه :

« لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة لطول الأمل ، ويقول فى الدنيا بقول الزاهدين ، ويعمل فيها بعمل الراغبين ؛ إن أعطى منها لم يشبع ، وإن منع لم يقنع ، يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ؛ ينهى ولا ينتهى ، ويأمر بما لا يأتى ؛ يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم ، ويبغض المسيئين وهو منهم ؛ يكره الموت لكثرة ذنوبه ، ويقيم على ما يكره الموت له ؛ إن سقم ظل نادما ، وإن صح أمن لاهيا ؛ يعجب بنفسه إذا عوفى ، ويقنط إذا ابتلى ؛ تغلبه نفسه على ما يظن ، ولا يغلبها على ما يستيقن ، ولا يثق بالرزق بما ضمن له ، ولا يعمل من العمل بما فرض عليه ؛ إن استغنى بطروفتن ، وإن افتقر قنط وحزن ؛ فهو من الذنب والنعمة موقر ، يبتغى الزيادة ولا يشكر ، ويتكلف من الناس ما لم يؤمر ، ويضيع من نفسه ما هو أكثر ؛ ويبالغ إذا سأل ، ويقصر إذا عمل ؛ يخشى الموت ، ولا يبادر الفوت ؛ يستكثر من معصية غيره ما يستقله من نفسه ، ويستكثر من طاعته ما يستقله من غيره ؛ فهو على الناس طاعن ، ولنفسه مداهن ؛ اللغو مع الأغنياء ، أحب إليه من الذكر مع الفقراء ؛ يحكم على غيره لنفسه ، ولا يحكم عليها لغيره ، وهو يطاع ويعصى ، ويستوفى ولا يوفى » .

نقول : إن هذه القطعة من كلام الامام أبى الحسن عليه السلام قد جمعت من عناصر النفسيات المفتونة ، فى بيان يخلب القلوب ، وحكمة تستهوى العقول ، مالم يجمعه غيره فيما نعلم.

مكتبتنا العربية

محمد عبده والدفاع عن الاسلام

— ٢ —

٣ — ولم يدخر محمد عبده جهدا فى محاربة كافة معتقدات التشبيه ، سواء أكانت عند الوثنيين القدماء أم عند الظاهرية والحشوية من المسلمين . ويرى اللاهوتى المصرى أن اعتقادات التشبيه وردت فى التاريخ فى صور ثلاث مختلفة :

(ا) ورد التشبيه أولا فى صورة اعتقاد بألوهية بعض الموجودات أو بعض الأشياء الحسية . ويفسر ذلك بأن ضعف الادراك عن الاحاطة بحقائق الأكوان يدفع الناس فى ذلك الطور الى الاعتقاد بأن آثار القوى الطبيعية التى يشاهدونها لا تفسر إلا بألوهية هذا الكائن أو ذلك ، مما شاء لهم الجهل من جماد أو حيوان أو إنسان . فاذا هم يسارعون فى إرضاء معبوداتهم بما يعن لهم وكما تشرعه لهم أهواؤهم (١) .

(ب) ويكون التشبيه أيضا عبارة عن الاعتقاد بأن الله يظهر أحيانا فى بعض الصور البشرية . فربما فاق إنسان أقرانه فى العقل أو فى الشجاعة « أو صدر منه مالا يألفون من الأعمال ، أو ظهر بما لا يعرفون من الأحوال » فيظنونه مظهرا للوجود الالهى ، ويدينون لسلطانه ، ويخضعون لارادته . ذلك هو الطور الذى يكون فيه الانسان عبدا للانسان (٢) .

(ج) ولكن التشبيه قد يتخذ صورة الاعتقاد بالوسائط والشفعاء ؛ يظن أهل هذا الطور أن الله « كملك من الملوك يصطفى لنفسه مدبرين من خلقه ، ويستصنع عمالا للتصرف فى شئون عباده ؛ فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى الى الله ، أو صدر منه ما يظنونه دليلا على أنه من المقربين اليه ، رفعوه الى تلك المنزلة ، منزلة الاصطفاء للتصرف فى الكون ، فاتخذوه شفيعا لديه يلجأون اليه فى مهمات أعمالهم ، ويستنجدون منه المعونة بما له من الدالة على ربه !

ويصرح الاستاذ الامام أخيرا بأن تلك الاعتقادات المشبهة كلها تلائم عقلية البشر فى حال قريبة من البداوة جعلت من الانسان العوبة لخياله ولرؤسائه وللسادن والكاهن (٣) .

٤ — وينكر محمد عبده أشد الانكار نظرية الجبر وقهر الارادة ، تلك النظرية التى شاعت نسبتها الى الاسلام ، ويرى أن الدين الاسلامى الصحيح برىء منها ، وأنه مناف للجبر ، مؤكد لحرية الارادة ، مثبت لأفعال الانسان . ويقول إن من المحقق أن نبى الاسلام اتجه بأقواله وأفعاله الى تأييد الحرية الانسانية والمسئولية الأخلاقية . وأن ذلك هو مذهب أهل السنة الصحيحة . فان صحابة النبى وأوائل التابعين فهموا ذلك المعنى وساروا فى تلك السبيل . ولقد صرح على بن أبى طالب بكفر من أنكروا حرية الارادة . نعم إن فى الاسلام بعض نزعات تنحو الى تقييد الحرية . ولكن أين الدين الذى خلا من تلك النزعات ؟ ن من قرأ القرآن فى إنصاف ، وقارن نصوصه بغيرها من النصوص النادرة التى

(١) تاريخ م ٢ ص ٤٢٧ (٢) نفس المرجع (٣) تاريخ م ٢ ص ٤٢٨

مكتبتنا العربية

أيدت الحرية ، وجد أنه يجعل لها مكانا يعدل ما جعلت لها الأديان الأخرى . وإذا كان « المكتوب » الذى قال بعض عامة المسلمين قد أوهم معنى الجبر الذى نسبه الغربيون الى الاسلام ، فذلك يقينا إسراف فاحش . إنما الجبر يرجع الى العقلية الخاصة للشعوب التى اعتنقت الاسلام أكثر مما يرجع الى طبيعة الاسلام نفسه . والذين ينكرون حرية الارادة فى أيامنا هذه إنما هم طوائف من المتصوفة ، وهم أشبه بطائفة « الجانسنست » وغلاة الكلفانيين فى المسيحية . وإذن فالتواكل « لا الاسلام » هو الآفة الكبرى لشعوب المسلمين . وجملة القول أن الاسلام اذا كان يرى كغيره من الأديان أن الله خالق الأشياء جميعا ، فان أفعال الانسان مع ذلك منسوبة اليه (١) .

٥ — اتهم بعض الكتاب الغربيين دين الاسلام بأنه دين مناوىء لتقدم العلم والثقافة فقال « أرنست رنان » : « عجز الاسلام عن التطور وعن قبول أى عنصر من عناصر الحياة المدنية فاجتث من قلبه كل بذرة من بذور الثقافة العقلية (٢) » . وكذلك صرح هانوتو بأن الاسلام عقبة فى سبيل العلم والحضارة العقلية (٣) .

لكن الاستاذ الامام يرى أن لا شىء هو أشد بطلانا من أمثال هذه الأحكام السريعة التى يسوق اليها التعصب والهوى ؛ فالاسلام إنما يحث على استعمال العقل والدليل ، وينهى عن التقليد وعن التعلق بفاسد المعتقدات والعادات ؛ فكيف يعجز الاسلام الذى يستند على مطالب الطبيعة البشرية وعلى العقل ، والذى يحض معتنقيه على البحث والاستقلال فى الرأى والاستدلال لمعرفة الكون ، كيف يعجز دين كهذا عن إجابة مطالب العلم والمدنية (٤) ؟ إن التاريخ نفسه شاهد على أن الاسلام قد سار مع العلم جنبا الى جنب . فما كاد يمضى على ظهور ذلك الدين قرنان من الزمان حتى نبغ المسلمون فى جميع فروع المعرفة البشرية . وهذا ما اعترف به كبار علماء الغرب ؛ فقد قال أحدهم : أقامت النصرانية فى الأرض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلكى واحد ، وأخذ المسلمون يبحثون فى هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين (٥) » . ألم يقل النبى (نبى الاسلام) : اطلبوا العلم ولو بالصين ؟ أما رأينا ذلك الأمى بعد هجرته الى المدينة يسمح باطلاق سراح أسرى مكة القادرين على تعليم اثنى عشر فتى من المدينة فن الكتابة والقراءة ، ذلك الفن الذى كان هو نفسه يجهله ؟ إن دينا يعلن أن مداد العالم يعدل دم الشهداء لا يمكن أن يتهم بالجهل ومناوأة العلم فى طبيعته وجوهره . لم يكن الاسلام دين جهل حين كانت أوربا تتخبط فى ظلام التاريخ ، بينما حمل المسلمون شعلة العرفان للانسانية كلها مدى

(١) انظر هذا الفصل السادس « الحرية عند محمد عبده » ص ٢٨ — ٣٩ (٢) رنان : « ابن رشد ومذهبه » ص ١١١ (٣) تاريخ م ٢ (٤) رسالة التوحيد ص ١٧٦ و ١٧٧ (٥) تاريخ م ٢ ص ٤٣٠

مكتبتنا العربية

خمسة قرون (١) . والعرب هم الذين اشتغلوا بجمع مؤلفات اليونان وترجمتها ، وهم الذين فهموا هندسة ابولونيوس ، وهم الذين استعملوا الأسلحة التى وجدوها فى المعقل المنطقى الذى خلفه أرسطو. والعرب أيضا هم الذين نموا علوم الزراعة والفلك ، وأنشأوا علمى الجبر والكيمياء (٢) وهم الذين أقاموا فى مدنهم المدارس والمكتبات وخطوا فيها المساجد والميادين ، وهم الذين أعطوا أوربا مدرسة فلسفية فى قرطبة ومدرسة طبية فى سالرن (٣) . والخلاصة أن الاسلام رحب كل الترحيب بالعلم .

٦ — ويرى محمد عبده أن تسامح الاسلام وترخصه سواء مع معتنقيه أو مع أصحاب الأديان الأخرى هو حقيقة لا سبيل الى وضعها موضع الشك . ذلك أن الاسلام جاء فأنكر أن يكون لأحد من الناس حق فى الحكم على عقيدة أخ له فى الدين ، ورفع ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثارا من أولئك بحق الفهم لأنفسهم (٤) . وكذلك اشتهر الاسلام باكرامه العلماء من غير المسلمين ، ولقد حفل تاريخ الخلافة بذكر الممتازين من اليهود والنصارى الذين ظفروا بأعلى المناصب فى الدولة الاسلامية (٥). ثم إن معاملة المسلمين للمسيحيين الخاضعين لهم فى أسبانيا مثلا « كان فيها تسامح أكثر مما كان فى معاملة النصارى للمسلمين » . تلك حقيقة اعترف بها المنصفون من المؤرخين والمستشرقين (٦) وإذا كان بعض رؤساء الدول الاسلامية قد اضطروا أحيانا الى شن الحرب على غير المسلمين فذلك تحقيقا لغايات سياسية ، ولم يستخدم الدين فى تلك الأحوال إلا وسيلة وتبريرا . فالاسلام إذن متسامح مع أهل الأديان الأخرى تسامحه مع أهل البحث الحر .

٧ — أراد الاستاذ الامام بهذا الدفاع أن يثبت أن الاسلام يفوق الأديان الأخرى بخلوص توحيده وتنزيهه . وبهذين المبدأين استطاع الاسلام أن يحرر الانسان فى جميع المجالات ، إذ وضعه أمام الله وحده ، وعلمه أن لا يعتمد على أحد سواه ، وأن لا يلجأ الى واسطة تبيعه رضاءه .

وبين الاستاذ الامام أن الاسلام بما له من صبغة إنسانية ظاهرة ، وعدوله عن مثل أعلى يتخطى حدود الطاقة البشرية ، كان أكثر الأديان ملاءمة للدنيا ؛ كما بين أنه بطابعه العقلى الذى يسوق الانسان الى الكشف عن أسرار الكون ؛ والى التعمق فى معرفة النفس ، مسترشدا بنور العقل ، وبمناداته بحرية الوجدان ، ومطالبته بحقوق الانسان ، وغير ذلك من المعانى التى ظفرت بها المدنية ، بهذا كله سبق الاسلام أوربا قرونا عديدة ؟

الدكتور عثمان أمين
مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

(١) تاريخ م ٢ ص ٤٢٨ — ٤٣٠ قارن بزورت سمت : محمد والمذهب المحمدى ص ٢١٤ (طبعة ثانية) .
(٢) الاسلام والنصرانية ص ٩١ بع قارن محمد المخزومى باشا . خاطرات جمال الدين الأفغانى . بيروت سنة ١٩٣١ ص ١٦٧ بع (٣) الاسلام والنصرانية ص ٨٧ — ٩٠ (٤) التوحيد ص ١٧٨ (٥) الاسلام والنصرانية ص ١٤ (٦) أنظر مقال « نصارى » فى دائرة المعارف الاسلامية وقارن . توماس ارنولد : تعاليم الاسلام .

مكتبتنا العربية

نظرية المعرفة عند ابن سينا

ولد الشيخ الرئيس ابن سينا عام ٣٧٠ هـ ، وتوفى عام ٤٢٨ هـ بهمذان وقيل باصبهان . وكتب سيرة حياته بقلمه كما فعل الغزالى فى المنقذ من الضلال . هذه السير المكتوبة بأقلام أصحابها تعتبر مرجعاً هاماً فى التاريخ خصوصاً من الناحية النفسية .

ونريد أن نعرض لناحية من نواحى فلسفته ، هى نظرية المعرفة ، تتمةً للبحث الذى بدأناه . فقد رأينا أن إخوان الصفا يذهبون إلى أن المعرفة كلها مكتسبة ، وأما « المعقولات التى هى فى أوائل العقول ليست شيئاً سوى رسوم المحسوسات الجزئيات الملتقطة بطريق الحواس » [١]

ويرى ابن سينا غير هذا الرأى ، بل يذهب إلى النقيض ، أى أن المعرفة فطرية ، على الأخص الأوليات . وفى ذلك يقول : « الأوليات هى قضايا ومقدمات تحدث فى الانسان من جهة قوته العقلية من غير سبب يوجب التصديق بها إلا ذواتها . . . . (إلى أن قال) : « وجب أن يصدق بها الذهن ابتداء بلاعلة أخرى ، ومن غير أن يشعر أن هذا مما استفيد فى الحال . بل يظن الانسان أنه دائما كان عالماً به . ومثال ذلك : أن الكل أعظم من الجزء ، وهذا غير مستفاد من حس ولا استقراء ولا شىء آخر . نعم قد يمكن أن يفيده الحس تصورا للكل وللأعظم وللجزء . وأما التصديق بهذه القضية (يريد أن الكل أعظم من الجزء) فهو من جبلته [٢] » .

وعقد ابن سينا فصلا فى « شرح ألفاظ يجب التنبه لمعانيها » منها العلم والعقل والذهن والذكاء والحدس . قال فى تعريف العقل « اعتقاد بأن الشىء كذا وأنه لا يمكن أن لا يكون كذا طبعاً بلا واسطة ، كاعتقاد المبادئ الأولى للبراهين . وقد يقال لتصور الماهية بذاتها بلا تحديدها كتصور المبادىء الأولى للحد . » [٣] وسيأتى تفصيل الكلام عن العقل فيما بعد .

ومن البراهين التى يسوقها ابن سينا على أن هذه المعقولات فطرية ومن طبيعة العقل وأنها غير مكتسبة أن النفس الناطقة ، وبها يسمى الانسان ناطقا ، هذه القوة موجودة فى كل واحد من الناس طفلا كان أو بالغاً ، مجنونا كان أو عاقلا ، مريضا كان أو سليما . فأول ما يحصل فى هذه القوة من المعقولات هى المسماة بداية العقول والآراء العالية : أعنى المعانى المتحققة

[١] مجلة الازهر المجلد ١٤ الجزء ٧ ص ٣٢٢ [٢] النجاة ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٣١ هـ ج ١ ص ١٠١
[٣] النجاة ج ١ ص ١٣٧ .

مكتبتنا العربية

بغير حاجة الى قياس وتعلم . إذ لو كان لكل واحد من المعقولات حاجة الى تقدم علم وقياس لوصل الأمر الى ما لا يتناهى . وذلك محال . وظاهر أن من المعقولات معقولات أول لا تحتاج الى قياس وتعلم فى أن تكون معقولات » [١] .

ونظم ابن سينا الرأى الذى نحن بصدده فى القصيدة المزدوجة فى المنطق حيث قال :

وبعضها مقـــدمات العقـل كالقـول أن الجزء دون الكل
حصولها لعقلنا بالفطرة لا يمكن التشكيك فيه الفكرة [٢]

هذه المعقولات الموجودة فى أوائل العقول بالفطرة دون حاجة إلى تعلم ، يختص بها عقلان من العقول الأربعة التى يقسم ابن سينا العقل إليها ، وهى : العقل الهيولانى ، والعقل بالملكة ، والعقل بالفعل ، والعقل المستفاد .

فالعقل الهيولانى تشبيه له بالهيولى الأولى الخالية فى نفسها عن جميع الصور المستعدة لقبولها ، وهى حاصلة لجميع أشخاص النوع فى مبادى فطرتهم .

والعقل بالملكة يسمى كذلك عند ما تحصل المعقولات الأولى بالفعل ، وبذلك يكون العقل الهيولانى قوة ، والعقل بالملكة فعلاً .

والعقل بالفعل هو الاستعداد لتحصيل المعقولات الثانية التى هى العلوم المكتسبة ، ويكون ذلك بالفكر والحدس .

والعقل المستفاد هو حضور تلك المعقولات بالفعل للنفس ، أو أن يحصل للمرء المعقول بالفعل مشاهداً متمثلا فى الذهن (٣) .

وأحب أن أثبت هنا نص ماذكره الرازى فى لباب الاشارات عن هذه العقول زيادة فى التحقيق والتأكيد « إشارة : النفس الانسانية لها قوتان : عاملة وهى القوة التى باعتبارها يدبر البدن ، وعاقلة ولها مراتب : فأولها كونها مستعدة لقبول الصور العقلية ، وهذه المرتبة مسماة بالعقل الهيولانى . وثانيها أن تحصل فيها التصورات والتصديقات البديهية وهى العقل بالملكة . وهذه المرتبة مختلفة بحسب كمية تلك البديهيات ، وبحسب كيفية قوة النفس على الانتقال منها إلى المطالب . وثالثها أن يحصل الانتقال من تلك المبادئ إلى المطالب الفكرية البرهانية إلا أن تلك الصور لاتكون حاضرة بالفعل . ورابعها أن تكون تلك الصورة حاضرة بالفعل ينظر إليها صاحبها وهى العقل المستفاد » (٤) .

---

[١] رسالة فى السعادة والحجج العشرة على ان النفس الانسانية جوهر ـ حيدر أباد الدكن ـ ١٣٠٣ هـ ـ ص ٥ [٢] منطق المشرقيين ـ مطبعة المؤيد ١٩١٠ ـ ص ١٤

[٣] اشارات ابن سينا شرح الطوسى والرازى المطبعة الخيرية ١٣٢٥ هـ ص ١٥٤ الى ١٦٠

[٤] لباب الاشارات للرازى ـــ مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ ص ٧٧ .

مكتبتنا العربية

ويبدو لنا أن الدكتور جيل صليبا لم يكن دقيقاً فى فهم ابن سينا ، ولهذا تثبت ماذكره فى رسالته ونناقشه بعد ذلك . قال : « فالنفس تنتزع المعقولات المجردة من المحسوسات الشخصية بواسطة العقل الهيولانى ، ثم تنظمها بحسب مافى العقل بالملكة من المعقولات الأولى وما تستخرجه من المعقولات الثانية . ولكن العقل الذى تشرق عليه المعقولات هو العقل المستفاد (١) .

ووجه الخطأ فيما ذكره يقع فيما يأتى :

١ — قوله إن النفس تنتزع المعقولات المجردة بواسطة العقل الهيولانى . إذ أن رأى ابن سينا أن العقل الهيولانى هو الاستعداد لقبول الصور العقلية . ولا يتم هذا الانتزاع إلا بالعقل المستفاد ، وله سبيل آخر نذكره فيما بعد .

٢ — والخطأ الثانى قوله « تنظمها بحسب ما فى العقل بالملكة من المعقولات الاولى » . وهذا التنظيم لم يقل به ابن سينا . ثم لم يبين لنا الدكتور صليبا هل المعقولات الأولى مكتسبة أم فطرية ؟

٣ — والخطأ الثالث قوله « ولكن العقل الذى تشرق عليه المعقولات هو العقل المستفاد » ، ذلك أن ابن سينا يرى أن الاشراق يكون فى المقول الأربعة ، ولكن منه إشراق بعيد ومنه إشراق قريب . وفى ذلك ينص الرازى فى اللباب « القوة على هذا الاتصال منها بعيدة وهو العقل الهيولانى ، ومنها قوة كاسبة وهى العقل بالملكة . ومنها قوة تامة الاستعداد لها أن تُقبل بالنفس إلى جهة الاشراق متى شاءت بملكة متمكنة وهى المسماة بالعقل بالفعل . وأما الاتصال التام فهو العقل المستفاد »(٢) .

هذه الإشارة مما هذب فيه الإمام الرازى كتاب الاشارات . أما الاشارة الأصلية فقد جرت كما يأتى « هذا الاتصال علته قوة بعيدة هى العقل الهيولانى ، وقوة كاسبة هى العقل بالملكة ، وقوة تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس إلى جهة الاشراق متى شاءت بملكة متمكنة وهى المسماة بالعقل بالفعل »(٣) .

فابن سينا وقف فى إشارته عند الكلام على الاتصال عند العقل بالفعل ، بينما يرى الرازى أن الاتصال التام يكون بالعقل المستفاد .

ونعود إلى تحقيق البحث الذى نحن بصدده وهو : هل يكتسب الانسان المعقولات الأولى عن المحسوسات ، أم هى موجودة بالفطرة ؟ . وإذا كانت فطرية فمن أين جاءت ؟

---

[١] من أفلاطون الى ابن سينا : الدكتور جيل صليبا — دمشق — الطبعة الثانية ص ١١٥

[٢] لباب الاشارات ص ٧٩ [٣] الاشارات ١٦٠

مكتبتنا العربية

أجاب ابن سينا عن هذه الأسئلة بأن « المعانى الكلية الأولية المتعلقة بما حصلت فى النفس فأما أن تحصل بتصفح الجزئيات أو بفيض يتصل بها علوى عن طريق الالهام ، لكن المعانى الكلية الأولية لو كانت مستفادة باستقراء الجزئيات لما كانت بها ثقة بل وما كانت كليات بالحقيقة » (١) .

فنحن نرى أن ابن سينا طرح المسألة على بساط البحث ، ووجد أن الوصول الى المعانى الكلية الأولية ، سواء أكانت المبادىء الأولى للبراهين أو للحد كما ذكرنا فى تعريف العقل ، تكون بطريقين : الأول تصفح الجزئيات وهو استقراء المحسوسات ، والثانى الفيض العلوى وطريق الاتصال . ثم أنكر ابن سينا طريق الحواس ، وآثر طريق الفيض . ودليله على ذلك الثقة الحاصلة فى الأوليات ، وأن هذه الثقة فيها هى الدليل عنده على أنها ليست من اكتساب أنفسنا بل من جوهر خارج عنا ، إذ « من البين أن هذه المعانى هى فى غاية الصحة والثقة وهى علة الثقة لغيرها ، فاذاً حصولها بفيض علوى ونور إلهى يتصل بها فيخرجها من حد القوة الى حد الفعل . وبالاتحاد بالفيض يعقل (٢) » .

ومن أدلة ابن سينا على وجود المعانى الكلية وجوداً حقيقياً خارجاً عنا ، تكتسبها النفس بالاتصال ، أن الصور العقلية تُنسى بعد إدراكها ، فأين تذهب ؟ فان قيل إن هناك شيئا كالخزانة تحفظ فيه الصور العقلية بعد نسيانها فهذا محال « لأن النفس جوهر مجرد ، فلا يمكن أن ينقسم الى قسمين يكون أحدهما مدركا والثانى خزانة ، فلم يبق إلا أن يقال إن ها هنا شيئا خارجا عن جوهرنا فيه الصور المعقولة بالذات ، فاذا وقع بين نفوسنا وبينه اتصال ارتسم منه فينا الصور العقلية الخاصه بذلك الاستعداد (٣) »

هذا الاتصال يكون بالعقل الفعال .

وجملة القول كما يقول الطوسى فى شرح الاشارات « أنا إذا علمنا شيئا فقد حصلت حقيقته فينا . فإذا غبنا عن ذلك المعلوم استحال أن تكون حقيقته باقية فينا ؛ إذ لا معنى للعلم إلا حصول تلك الصورة فى النفس . فمتى كانت تلك الصور باقية فى النفس استحال أن لا تكون النفس شاعرة بها . ثم إن تلك الصور إما أن تكون متحفظة فى قوة أخرى وهى خزانة لأنفسنا وهذا محال ؛ لأن تلك الخزانة إن كانت موجودة فى أنفسنا كانت الصور الموجودة فيها موجودة فى أنفسنا فيعود المحال ، وإن لم يكن موجوداً فى نفوسنا فهو موجود مباين لنفوسنا ، ويجب أن يكون بحيث تفيض عنه هذه الصور على نفوسنا عند اتصال نفوسنا به . وذلك الشىء يجب أن يكون عقلا بالفعل وهو العقل الفعال » (٤) .

الدكتور

احمد فؤاد الاهوانى

[١] رسالة فى السعادة ص ١٣ [٢] رسالة فى السعادة ص ١٣
[٣] لباب الاشارات ص ٧٨ و ٧٩ [٤] الاشارات ص ١٥٩ و ١٦٠

مكتبتنا العربية

الحجاج بن يوسف الثقفى

— ٢ —

عود على بدء :

تحدثنا فى مقالنا السابق عن نشأة الحجاج والبيئة التى نبت فيها ، ثم ألمعنا إلى نبذة من تاريخه فى خدمة عبد الملك بن مروان . وها نحن أولاء نتحدث اليوم عن مُثُل أخرى من أعماله العظيمة التى تدل على أنه كان قائداً ممتازاً يزن الأمر قبل أن يقدم عليه ، وينهج له سبيله الذى يفضى إليه . فالحجاج مثل أعلى للقادة الذين يضعون الأمور فى نصابها ، فهو لايضع السيف حيث تكفيه العصا ، ولا العصا حيث يكفيه اللسان . .

ويجدر بمؤرخ الحجاج ، لاسيما إذا أراد أن يستعرض أخلد آثاره ، أن يتحدث عن إمارته على العراق حيث طبقت السياسة الحجاجية أصدق تطبيق ، وأتت بأطيب الثمار .

إمارته على العراق :

كانت العراق أحق الأمكنة بإمارة رجل له ذكاء الحجاج وجبروته ، لأنها كانت تؤوى رجالا من أهل النفاق والغدر ؛ أليسوا هم الذين أعطوا الأمان الحسين بن على ثم انفضوا من حوله بعد أن استوفدوه وتركوه يلقى مصرعه فى كربلاء ؟ ! أليسوا هم الذين غدروا من قبله بمسلم بن عقيل ومن بعده بمصعب بن الزبير ؟ !

كانت بالعراق سوق نافقة لكل دعوة تعارض بنى أمية ، فالعراق بأولئك الرجال كان وكر الدسائس ضد الحكم القائم ، والعراق مفرخ رافعى راية التمرد عليه ؛ فهم الذين تركوا المهلب يحارب الخوارج ولا يجد حوله إلا النزر اليسير من الجند والعتاد . وفى كل مكان هنالك كان ينتظم الحلق ومادة حديثهم طعن الأمويين ونقد مبادئهم بالحق والباطل .

فلم يجد عبد الملك بداً من أن يرميهم بغضبه ونقمته ، فأوفد اليهم رجله الجبار الحجاج ، الذى سنرى كيف أوقع بهم وردهم إلى طاعة الدولة القائمة . فحين رأى عبد الملك أن قائده المهلب ابن أبى صفرة الذى يقاتل الخوارج يشكو قلة الرجال وقلة الامداد ، وعدم مبالاة القوم بمساعدته ، خرج إلى أصحابه يقول : «ويل لكم ! مَن للعراق ؟» والحجاج يقول : « أنا لها ياأمير المؤمنين » . وكرر الخليفة سؤاله والحجاج عند جوابه لايتعداه ، حتى عهد اليه عبد الملك بإمارة العراق سنة ٧٣ هـ .

وهكذا سار الدكتاتور الأموى — إذا صح هذا التعبير — إلى حيث ولايته الجديدة ، فعند مابلغ القادسية ترك أصحابه ثم تسلل بمفرده إلى الكوفة فى ثياب تنكرية عجيبة ، وقد جعل على وجهه لثاما وعلى رأسه عمامة حمراء ، وصعد المنبر حاملا سيفه متنكباً قوسه ، ثم ظل

مكتبتنا العربية

برهة لاينبس ببنت شفة ، حتى تهامس الناس فى المسجد وفكر بعضهم فى أن يقذفه بالحصى ، فكشف عن شخصه وأنشد :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

ثم خطبهم خطبته المشهورة التى وجفت لها القلوب ، ومنها :

« يأهل الكوفة ! إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى . . . فسأضربكم ضرب غرائب الإبل ، وسأحزمكم حزم السلمة . . . أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده . . . الخ » . إنها والله لمناورة بارعة وتقليد عجيب يبدأ به الحجاج أهل العراق ؛ فافتتح عهده الجديد بأن ألقى على القوم درسا فى الأدب والطاعة لم ينسوه أبداً .

وكأنى بأهل العراق قد رأوا أن الوالى الجديد رجل لاعهد لهم بأمثاله فى جرأته وحزمه ، إذا قال فعل ، وإذا فعل لاينظر فى العاقبة . وحقا لقد كانت هذه الشدة دواء ناجعا لأهل النفاق ، فالنفاق سجية الجبناء فى كل زمان ومكان ، وليس هنالك دواء أنجع ولا أشفى للجبن من الشدة والجبروت .

فهذا عمر بن الضابئ الشيخ الهزيل الذى انحنى ظهره وارتعش كبرا وهرما يلتمس من الحجاج أن يعفيه من اللحوق بالمهلب لعدم قدرته على القتال ، وأن يقتل ابنه الشاب بدلا منه . فاذا برجلنا الذى لايرحم الأثيم وإن طالت مراوغته وسلامته ، يقول لصاحبنا : ألست القائل :

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله

ثم أمر فضرب عنقه . وهنا أترك للقارئ الاستنباط ، فلعله فهم كيف تزاحمت المناكب وأسرع الشيب والشباب لمؤازرة المهلب فى جهاده ، وفى هذا يقول عبد الله الأسدى :

تجهز فإما أن تزور ابن ضابىء عميرا ، وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثلج أشهبا
فأضحت ومن كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أوهى أقربا !!

هذه سياسة الحجاج مع النفاق ؛ جعل ميدان القتال الوعر البعيد بخراسان كأنه بظاهر المدينة أو عن كثب من سوقها ، والجبروت فى بعض الاحوال يفعل المستحيل ، ويطيب القلوب الرائعة ، ويبرىء الأحلام المريضة .

إن الحجاج فى إرخاصه الأرواح وسفكه الدماء على هذه الوتيرة ، قد يقال عنه إنه طاغية جبار يأخذ البرىء بذنب الأثيم . ولكن أليس خليقا بنا حين نقرر هذا الحكم أن نحاول التنبؤ بما عساه كان يحدث لو أن الحجاج سار على سياسة سابقيه ، سياسة اللين والتسويف

مكتبتنا العربية

والإقناع بالأحاديث والخطب ؟ كيف كان يستطيع المهلب فى جيشه الصغير أن يقمع فتنهم ، وأن يكسر شوكتهم ؟ أما كان يؤدى ذلك إلى انتصار الفتنة ، فتجتاح العالم الإسلامى حينئذ ؟ وناهيك عما لها من نتائج كانت تقع لا محالة . فما أصدق الحجاج وما كان أبعد نظره حين قال عندما أمر بقتل ابن ضابىء « اقتله إن فى قتله صلاحا للمسلمين » .

حديث البصرة :

بعد أن تم للحجاج تدبير أمور الكوفة وإصلاح ما أفسده أهلها ، وبعد أن زود المهلب بالجنود حتى قاضوا عن حاجته ، شخص الى البصرة التى كان الخوارج يهددونها والتى كانت نقطة ضعف فى الدولة الأموية لكثرة الأيدى التى تداولتها ، وذلك بعد أن استخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة . وفى البصرة حيث الاضطرابات شاملة ، وحيث تفرخ الفتن لكل ما هو غير أموى ، وحيث حقل الدسائس الخصب ، ذهب الحجاج وعرض لأهلها سياسته بطريقته الخاصة ، أعنى بخطبة كخطبته فى الكوفة ملأها تهديدا ووعيدا ، وأمرهم أن يلحقوا بجيش المهلب ، فصدعوا بالأمر وخشوا بأس الرجل الذى يقتل بلا تحقيق .

ثم نزل الحجاج على مقربة من المهلب فشد أزره ، وفى هذه الأثناء حدثت فتنة ابن الجارود أحد كبار البصريين ، على أثر اختلافه مع الحجاج ، الذى جمع حوله الأنصار حتى أصبح الحجاج شبه فريد إلا من خاصته وأهل منزله ، وبايع القوم زعيمهم ابن الجارود ، ولكن الحجاج استطاع بسياسته ولباقته أن يحدث اختلافا بين أنصار عدوه ، فانفض جلهم من حوله وأصبح مع الحجاج ستة آلاف رجل ، فتمكن من هزيمة هذا الثائر شر هزيمة . وهنا يبدو لنا ميزة الصبر والجلد عند الحجاج ، وكيف أنه تماسك ولم تخذله نفسه الكبيرة حتى فى أسوأ الظروف وأحلك الساعات .

نضاله مع الخوارج :

وهذه صفحة أخرى من أنصع صفحات تاريخ الحجاج ، فإن له فى جهاد الخوارج والثوار حديثا طويلا موصولا فاضت به كتب السير والتاريخ ، حيث خرج فى عهده كثيرون منهم قطرى بن الفجاءة الذى اشتد ساعده ، وكثر أعوانه ، ولكن الحجاج استطاع أن يقهره ويخلص الدولة من شروره وآرائه ، ومن الذين قاتلهم الحجاج وكانت له معهم سلسلة من النضال عبد الرحمن بن الأشعث ، فقد جمع حوله الأعوان وكان رجلا شديد المراس ، قوى البأس محبوبا من أنصاره ، وهدد الدولة تهديدا قويا فى كثير من جهاتها ، حتى تمكن من غزو البصرة فدخلها وانتهك حرماتها .

وهنا يبدو لنا فضيلة الصبر والعزة عند الحجاج ؛ ففى هذا الوقت العصيب الذى خذله فيه الأعوان لم تضطرب نفسه هلعا ، ولم يذهب جلده شعاعا ، بل سمت نفسه الكبيرة على اليأس ، فحين هزمت جنوده فى الزاوية سنة ٨٢هـ ووجد عدوه قد ازداد قوة وعددا وأسكرته فرحة النصر

مكتبتنا العربية

وأخذته عزة الظفر ، لما رأى الحجاج ذلك جثى على ركبتيه ثم قرب سيفه من نفسه قائلا : « لله در مصعب بن الزبير ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل ! » وكان لهذا المشهد فعل السحر فسرى مسرى (الكهرباء) فى القلوب ، وتشجع من حوله ونظموا صفوفهم ، وكر الحجاج كرة عنيفة ودارت بينه وبين ابن الأشعث معركة طاحنة فى دير الجماجم انتهت بانتصار الحجاج وخذلان ابن الأشعث ، وانتهى هذا النضال الطويل الذى زلزل كيان الدولة الأموية وهددها فى صميمها ، وكانت نهاية ابن الأشعث آخر الفتن العراقية الكبرى . فإلى الحجاج يرجع الفضل الأكبر فى إنقاذ عرش بنى أمية من عوامل الهدم لأنه هو الذى حطم معاول الخوارج والثوار .

مقته للنفاق والمنافقين :

بعد أن استتب الأمر للحجاج وتغلب على خصمه العنيد ابن الأشعث ، رجع الى الكوفة وفى نفسه الكبيرة آلام لم تفلح فرحة النصر والظفر فى اقتلاعها ، فهو لم ينس موقف أتباعه فى الساعات العصيبة حين فروا من حوله ليساعدوا العدو . وها هو ذا يجلس مجلسه فى الكوفة ثم يستعرض أسماء هؤلاء الخونة ويستدعيهم ليمثلوا بين يديه ، وكان لا يقبل توبة أحدهم ولا يعفو عن خطيئته حتى يشهد على نفسه بالكفر حين نبذ طاعة الامام التى أمر الله بها عباده ، فها هو ذا أعشى همدان الشاعر الذى هجا الحجاج وأمان عدوه عليه يمثل بين يديه ليمدحه نفاقا ورياء بقصيدة عصماء مطلعها :

أبى الله إلا أن يتم نوره ويطفىء نور الفاسقين فيخمدا

وكتم الجلساء أنفاسهم ، وأصاخوا الأسماع ، ليروا كيف يرد الحجاج على هذه القصيدة التى تقطر مدحا وملقا . ولكن القائد المحنك والداهية الأريب أمر به فقتل لأنه يمقت النفاق وأصحابه .

وها هو ذا عامر الشعبى فقيه العراق الذى كان من أعوان ابن الأشعث وأشد أعداء الحجاج ، يمثل بين يديه ، ولو كان الحجاج كما يقولون متعطشا للدماء محبا للقتل لضرب عنقه من لدن وقع نظره عليه ، ولكنه سأله عن سبب ما كان منه ، فقال الشعبى : لقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا ، فإن سطوت فبذنوبنا ، وإن عفوت عنا فبحلمك ... الخ » فقال له رجلنا العظيم : « أنت والله أحب إلى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت ، قد أمنت عندنا يا شعبى فانصرف » .

هكذا كان الحجاج يزن الأمور ، وعلى هذا النسق كان يكره النفاق ويحب الصدق والصراحة ، فهو لا يخبط فى سياسته خبط عشواء ، وإنما ينفذ مبادئ اقتنع بسموها وأقنعته الأيام بصلاحيتها ، لذلك لا نعجب إذا سمعنا الوليد بن عبد الملك الذى خلف أباه على عرش الخلافة الأموية يقول إذا ذكر له الحجاج : «لقد كان عبد الملك يقول : الحجاج جلدة ما بين عينى وأنفى ، وأنا أقول : الحجاج جلدة وجهى كله » ؟

احمد ابراهيم عمارة
مدرس فى كلية اللغة العربية

مكتبتنا العربية

كلمة تاريخية عن المكتبة الازهرية

— ٦ —

١١ ـ تطور المكتبة الأزهرية :

بدأت المكتبة الأزهرية صغيرة ثم كبرت ، شأن المؤسسات الأخرى ، فقد بدأت بمكان واحد وأصبح لها ثلاثة أمكنة تضيق بكتبها وإدارتها ، وبدأت بأربعة موظفين وبلغ عددهم الآن عشرين ، وكانت ميزانيتها فى السنة ٣١٤ جنيها وهى الآن ١٤٤٨ جنيها عدا ما يصرف من الميزانية العامة للأزهر فى شراء الكتب والخرائط والاصلاحات ، وكان عدد كتبها ٧٧٠٣ وصار عددها ٨٥٠٠٠ كتاب فى ٩٠٠٧٥ مجلدا ، وعدد فنونها ٢٨ وأصبح الآن ٥٨ فنا ، وكان مستوى الخبرة الفنية لموظفيها دون ما هى عليه الآن . وقد مرت بالمكتبة عهود لقيت فيها من بعض الرؤساء بالأزهر عناية بشأنها ورغبة فى إنهاضها ؛ ففى سنة ١٩٣٣ م انتدب الأستاذ حسين افندى عيسى الموظف بدار الكتب الملكية والمتخصص فى فنون المكتبات لدراستها ووضع مشروع لتنظيمها ، وقد قضى فى مهمته زهاء ١٩ شهرا درس فيها المكتبة دراسة فنية ، ووضع عنها تقريرا وافيا ضمنه دراسته ومقترحاته فى تنظيمها وإنهاضها .

وفى سنة ١٩٤١ انتدب الأستاذ محمد عبد المعز من مكتبة جامعة فؤاد الأول لهذا الغرض ووضع عن مهمته تقريرا مختصرا ، واشترت مشيخة الأزهر سنة ١٩٣٦ آلة فوتوغرافية لتصوير المخطوطات ، وقد حال دون تنفيذ الاقتراحات التى تضمنتها التقريرات كثرة النفقات التى تستلزمها ، ولعل ميزانية الأزهر جميعها تعجز عن تغطية النفقات التى يستلزمها تنفيذ مقترحات الاستاذ حسين عيسى . وظلت آلة التصوير معطلة لتوقف الانتفاع بها على خبير يقوم عليها .

وفى سنة ١٩٤٣ م ظفرت المكتبة ببعض الاصلاحات التى اقترحها الأمين وتفضلت المشيخة بموافقته عليها ، فوضعت فى ميزانية المكتبة وظيفتين لكاتب على الآلة الكاتبة وجندى للاطفاء ، وكانت المكتبة منذ إنشائها محرومة من هذا الاحتياط .

وأسس للأمين مكتب يليق بمكانتها ومكانة زائريها من المصريين والأجانب ، واتخذ لها خاتم خاص بالبريد لتستقل فى إصداره عن الادارة العامة ، وأحضرت لها (آلة كاتبة) .

وشرع فى ابريل سنة ١٩٤٣ فى وضع فهرس لها سدا لأشنع نقص كانت تشعر به المكتبة وزائروها ، وانتدب له أحد الخبراء من مدرسى المعاهد . وانتدب للاشتراك فى أعماله المنوعة بعض العلماء ، وقد سارت عملية الفهرس فى توفيق يبشر بالنجاح إن شاء الله . ولوحظ فى وضع الفهرس أن يكون على نهج فهرس دار الكتب المصرية مع تحسين فيه ، وهو تعقيب كل فن بملحق تاريخى

مكتبتنا العربية

ترتب فيه المخطوطات على عصورها ليسهل على الباحث التاريخى الإلمام بمخطوطات العصور المختلفة ، وكان ذلك بإرشاد الأستاذ كامل المهندس رئيس قسم الفهارس العربية بدار الكتب المصرية . وتولت مطبعة الأزهر طبع ما يفرغ منه شيئا فشيئا ، وسارت فى عملها بنجاح . ولم تبخل المشيخة مع استحكام الأزمة فى الورق بالقدر اللازم منه للفهرس لاقتناعها بفائدته وضرورة الاسراع فى وضعه . وتفضلت المشيخة بالموافقة على اقتراح الأمين أن يشترك المعاون والمغيرون مع الأمين فى تحمل المسئولية فى المحافظة على الكتب بتقديم الضمانات اللازمة بعد استفتاء دار الكتب المصرية رسميا فى ذلك ، وكان الأمين ينفرد بتحمل مسئولية المكتبة وحده ، كما تفضلت بالموافقة على اقتراحه أنه تتولى مطبعة الأزهر تجليد كتب المكتبة للمحافظة عليها وإتقان تجليدها ، وللاقتصاد فى النفقات وتوسيع العمل بالمطبعة ، وأخذت المطبعة تباشر هذه العملية بنجاح .

ووضع الأمين كلمة تاريخية عن المكتبة الأزهرية منذ إنشائها ، وما مر عليها من التطورات ، لتكون تعريفا بالمكتبة ومرجعا للباحثين عنها نشرت تباعا فى مجلة الأزهر ، وسيلتمس واضعها من المشيخة ترجمتها أو ترجمة ما ترى ضرورة ترجمته منها باللغة الانكليزية وطبعها باللغتين والاحتفاظ بها فى الادارة العامة لتكون فى متناول المشيخة إذا طلبها العلماء الذين يهتمون بأمثال هذه البحوث من المصريين والأجانب . وأعيد النظر فى توزيع الفنون وفرزها بدقة ، وألحق كل كتاب بفنه ، وبهذا أضيف الى بعض الفنون جملة صالحة من كتب كانت مغمورة فى فنون أخرى وبخاصة (فى الفنون المنوعة) كان لا يمكن أن يستفيد منها أحد ولا يتنبه الى مكانها باحث أو مطالع . واقتبست المكتبة نظام استهداء الكتب من المؤلفين والناشرين ، وطبعت خطابات خاصة بهذا الغرض ، وحصلت المكتبة على طائفة من الكتب بهذا الطريق ، وستحصل على كثير منها على الدوام .

ورغم هذه التطورات الاصلاحية لا زالت المكتبة فى المراحل الأولى من الأصلاح ، ولا زال ينقصها الكثير من وسائله ، وأهم هذه الوسائل إيجاد المكان الملائم للمكتبة ليستقر الموظفون فى مكاتبهم وتستقر الكتب فى أماكنها ، وتعد فيه قاعة المطالعة التى هى أهم مظهر لرسالة المكتبات ونشاطها العلمى . وتنظيم تموين المكتبة بما يجد من الكتب فى عالم الطباعة والتأليف لتسعف الراغبين بحاجاتهم منها سريعا ، وإنشاء قسم فى المكتبة للصحف والمجلات الدورية التى حرمت منها المكتبة منذ إنشائها خصوصا وقد أصبحت الصحف والمجلات أداة الثقافة الشعبية الشائعة وطريق الاستفادة العلمية السهلة .

١٢ — المكتبة فى رعاية الأسرة العلوية :

يعيش الأزهر دائما فى رعاية البيت العلوى وفى فيض من عنايته وعطفه ، وقد تجلى هذا

مكتبتنا العربية

العطف بخاصة فى عهدى المغفور له الملك فؤاد الأول وعهد صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق مد الله فى عمره . ويضيق المقام عن نشر الصفحات التاريخية التى تسجل عطف الملك فؤاد الأول فى مناسبات مختلفة . وعطف مولانا الملك فاروق لايحتاج إلى برهان . وحسبنا أن نذكر له تكريم العلم والعلماء بالتفضل بالاستماع إلى الدروس الدينية التى يلقيها شيخ العلماء الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى شهر رمضان سنوات متتالية . والمكتبة الأزهرية قطعة من الأزهر ، فكل عطف يناله الأزهر فهى آخذة بقسطها منه .

غير أنها ظفرت بعطف خاص من خديوى مصر وملوكها وأمراء الأسرة العلوية بها ، فقد أنشئت فى عهد خديو مصر عباس باشا حلمى الثانى . ويذكر بعض المؤرخين أنها أنشئت باشارته ، وكانت شئونها تلقى من جنابه العالى كل عطف وتأييد ، وتفضل بزيارتها مرارا .

وقد أهدى اليها الأمير يوسف كمال الدين سنة ١٩٣٧ م المجموعة الكمالية فى جغرافية مصر ، والقارة الأفريقية وهى من جمعه ووضعه وقد طبعت بلندن عام ١٩٢٩ م كما أهدى اليها المغفور له عمر باشا طوسون مجموعة الخرائط التاريخية سنة ١٩٣٧ م .

وفى عهد المغفور له الملك فؤاد وضع مشروع بنائها ضمن مشروع المبانى الأزهرية ، وتفضل بزيارتها فى جمادى الآخرة سنة ١٣٤٢هـ الموافق يناير سنة ١٩٢٤ م فى مشيخة فضيلة المغفور له الشيخ أبى الفضل الجيزاوى ، وبإشارته انتدب الاستاذ حسين عيسى لدراسة حالة المكتبة ووضع تقرير عنها ، وقد سلفت الإشارة إليه ، وبإشارته أيضا أهدت الخاصة الملكية إلى المكتبة مجموعة الفرامانات الشاهانية العثمانية الصادرة إلى ولاة مصر وخديويها من ١٠٠٦ - ١٣٢٢هـ . وقد تفضل بزيارتها حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق بعد صلاة الجمعة بالجامع الأزهر فى ١١ شوال سنة ١٣٥٥ هـ الموافق ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٦ م فى مشيخة فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر . وسيتم فى عهد الفاروق إن شاء الله مبنى المكتبة الأزهرية والمبانى الأزهرية عامة ، وستكون هذه المبانى رمز رعاية الفاروق للأزهر ولرجاله وللشريعة وخدامها . عاش الفاروق مؤيدا بالدين وموئلا للاسلام والمسلمين .

ولله الحمد أولا وآخرا

٣١ يناير سنة ١٩٤٤

أبو الوفا المراغى

مكتبتنا العربية

معترك الفلسفتين

كلمة طيبة فى خصائص العقل الباطن

للفيلسوف المشهور (جان فينو) Jean Fenot مباحث قيمة نشرها فى مجلته المشهورة الموسومة (بالمجلة العالمية) La Revne mondiale تختص بالشئون النفسية . وقد ألمّ فى واحد منها بذكر (العقل الباطن) للانسان وقد تقدم لنا كلام فيه ، فرأينا أن ننقل ما كتبه فيه ليطلع قراؤنا على هذا الاكتشاف الروحى الخطير ، فانه قد حل معضلات فلسفية كثيرة ، وأوجد للمجاهدين فى سبيل دحض المذهب المادى سلاحا لا تمكن مقاومته .

ونحن قبل إيراد ما كتبه الفيلسوف (جان فينو) نذكر كلمة عن ماهية العقل الباطن : إذا نوم إنسان تنويماً مغناطيسياً ، تجلى لمنومه أنه يخاطبه بعقل أرفع من عقله العادى ، عقل لا يغيب عنه فتيل ولا قطمير من ذكريات حياته ، فضلا عن أنه يتمتع بقوى خارقة للعادة ، كرؤيته ماوراء الحواجز ، وما بعد عنه بمسافات شاسعة ، وقراءته لما يجول فى نفوس المشاهدين ، وقراءته مافى حقائبهم من الرسائل ، وكإخباره بالمغيبات الخ الخ يدرك ذلك كله بنفسه بغير الاستعانة بالحواس الجثمانية . وقد سمى العلماء الباحثون هذا العقل بالعقل الباطن La subconscience . وقد ألمّ جان فينو هنا بسلطان هذا العقل ، وهو ماأجمعنا على نقله لقراء مجلة الأزهر لما فيه من النتائج الجليلة ، قال :

الواقع وقوة العقل الباطن

« يرجح أن (أكثر) الظواهر النفسية التى تقع فى أثناء التجارب تحدث بفعل العقل الباطن للوسيط . فان تجارب حديثة تفتح أمامنا من هذه الوجهة باحات عجيبة . لنذكر منها التحقيقات التى قام بها الأستاذ الدكتور (كراوفورد) مدرس الميكانيكا بالمجمع العلمى الفنى لمدينة (بالفور) بانجلترة .

« هذا العالم الطبيعى الذى أجدر به أن يعتبر خصما للمباحث الروحية لا مشايعاً لها يسلم بوجود قوة نفسية حالة فينا ، تحدث آثاراً لا يمكن الشك فيها على الأشياء المادية . وإليك حجة من حججه البينة ، قال :

مكتبتنا العربية

« لنضع وسيطاً فى أثناء جلسة تجربة نفسية على ميزان ، فاننا نرى عند مايزايل الحوان (الترابيزة) الأرض ، مرتفعاً إلى فوق تحدث زيادة فى وزن جسم ذلك الوسيط تساوى وزن ذلك الحوان .

« فاذا بقى الحوان معلقاً فى الهواء ، فان الميزان يستمر دالا على تلك الزيادة عينها .

« فماذا يستنتج من ذلك ؟

« يستنتج منه أنه بما أن الوسيط يتأثر وزنه بثقل هذا الحوان فيكون هو السبب المباشر لارتفاعه فى الهواء . وذلك بأن يكون عقله الباطن هو الذى أحدث هذه الظاهرة على غير شعور منه ، بحيث أنه لايستطيع إحداثها وهو فى حالته العادية .

« وفى رأى الأستاذ الدكتور (كراوفورد) أن الوسيط يشع منه تيار روحانى يرفع المثقلات . وإذا كنا قد تمكنا من التحقق من زيادة ثقله ، فاننا لم نتمكن من رؤية ذلك التيار الروحانى .

« أما آثار ذلك العقل الباطن باعتبار أنه مصدر للقوة ، سواء أكان يشع منه ذلك التيار الروحانى أم لم يشع ، فقد ثبت ثبوتا واضحاً .

« والتنويم المغناطيسى الذى يجب أن يشغل مكانا عالياً من علم البسيكولوجيا لأسباب كثيرة ، والذى أخطأوا فى اعتباره فرعا من العلوم الباطنية ، يعطينا فى هذا الموضوع تفسيرات لاتحتمل الشك فى صحة وجود العقل الباطن ، والقوى التى تحت دائرة الشعور العادى .

« نعم إنه لايفسر لنا كنه هذه القوة المجهولة ، ولكن ماهو العلم الذى فى وسعه أن يكشف كنه قوة من القوى المولدة للظواهر الطبيعية ؟ فنحن نشهد فى هذا الموطن مانشهده فى كل موطن ، وهو مظهر خارجى لقوة خفية . فالذى يهم الباحث هو التحقق من وجود تلك القوى فى الواقع . أما معرفة الكنه الحقيقى لتلك القوى فسيطول انتظارنا لها ، وستضطرنا للجأ إلى الافتراضات ، وهذا بعينه يحصل فى مجال أدق العلوم الطبيعية .

« فلنرجع إلى كلمة (لبنتز) الشهير وهى : لنحذر من اعتبار قشور الألفاظ لبابا للأشياء .

« إننى فى التجارب النفسية التى عملتها بمساعدة المأسوف عليه الأستاذ (ألفريد بينيه) و (أوكورويكز) أمكننى دائماً أن أشاهد وجود العقل الباطن الذى كان بأعماله العجيبة والمعقدة ، يؤتينا بتفسيرات أكثر المعجزات التى رويت لنا عن القرون السابقة . وبناء على هذا فجميع سلسلة الحوادث الخارقة للعادة يمكن أن يأتى بمثلها العقل الباطن إذا تخلص من الطبقات العميقة لأنيتنا (أى لذاتنا) مثل الإبصار من بعد ، وتنفيذ الأوامر التى تصدر إليه من غير طريق المشاعر المباشر ، أى بواسطة التأثير النفسانى ، ومعرفة المغيبات ،

مكتبتنا العربية

وإعطاء معلومات عن أشياء يسأل عنها ، والتكلم بلغات يجهلها فى حالته العادية ، وزيادة مقاومته الطبيعية ، وقواه المادية ، وفقد جسمه للحس بالآلام ، وتأثر جثمانه بآثار الإيعاز ، كتوليد بثور أو دمامل به ، وحوادث أخرى منوعة يستحيل الحصول عليها والإنسان فى حالته العادية .

تلاقى العقل والايمان

« فى بداءة تجاربى كانت الكلمات المكررة التى قالها (باسكال) عن الصمت الأبدى للعالم غير المتناهى الذى يحيط بنا ، ترن فى أذنى . ولكن كان تجدد هذا المظهر الروحى واستمراره على الاتساع أمام عقلى الدهش من لآلائه ، قد فتح لى باب الرجاء لإدراكه ، بل لفهم هذا الحلم السامى .

« وقد وجدت فى هذه المجالات المحدودة كثيراً من الأدلة على وجود العقل الباطن ، فهل هو مقر الروح التى أحس الناس بوجودها منذ قرون فى كل صقع من أصقاع الأرض ؟ .

« إن العالم والجاهل يتأثران بصحة وجود المادة على السواء بسبب آثارها وتفاعلاتها ، أليس الأمر كذلك بالنسبة للعقل الباطن ؟ إننا مع عدم إمكاننا وزنه ولا مسه على صورة مادية نرى قواه العاملة ظاهرة بمظاهر شتى . وكما أنه ينبوع الفرح والترح ، فهو كذلك القوة البانية والهادمة فى الجسم ، وهو يخفى كنهه لجميع قوى الطبيعة ، ومع ذلك فلا شئ يمنع الاعتقاد بوجودها .

« إن حواسنا دائمة الانخداع للمظاهر ، وإنه لينتج من ضلالها فى الحكم مناقضات واضحة للوجود الذى تجمعت العلوم الطبيعية فى اكتشاف بعض جوانبه ، فليس بمسموح لنا والحالة هذه أن ننكر قوى أو ظواهر تناقض مانشهده بحواسنا ومشاعرنا .

« على أن العقل الباطن يتجلى لنا أيضاً بمظاهر تدل عليه من وجه آخر . فلا يمكن الشك فى وجوده كما لايمكن الشك فى الظواهر الكثيرة التى هو ينبوعها ومجالها معاً . ولما كانت هذه الظواهر تمتد إلى أبعد مايحيط به النظر ، فيكون مما يناقض العلم التحكم فى تضييق دائرتها . ولا يمكن التسليم اليوم بالأصل المادى الأكبر الذى يقضى بإنكار وجود الروح بحجة عدم إدراكنا أى خاصة بدون المادة ، كالحرارة لايمكن أن توجد بدون جسم حار ، ولا الكهرباء بدون جسم متكهرب ، فان العقل الباطن ينبه نظرنا إليه على الدوام بمظاهره التى لاتنتهى إلى غاية ، ولا يمكن تحديدها بحد . وبما أن عدداً عديداً من الظواهر التى أنجح الباحثون فى تدوينها تتفق والخصائص التى تعزى إلى الروح فى رأى الذين يعتقدون بها بالفطرة أو بالنظرة العجلى أو بتأثير الإيمان ، فهل من العقل أن لا نعتبر تلك المظاهر المسجلة شيئاً مذكوراً ؟

مكتبتنا العربية

« بناء على هذا فان علم النفس المستخرج من الفيزيولوجيا بدون أن يعنى بما يقتضيه الإيمان ، وبحاجة الناس من الوجهة الأدبية ، قد انتهى به الأمر مذ الآن إلى إعارة أمانيهم قواعد علمية .

« فهذا التلاقى غير المنتظر بين العقل والإيمان ستكون ثمرته ارتفاع قيمتهما ، وحدوث تسامح بينهما .

« إن خلود شخصيتنا تتجلى لنا اليوم فى مجالى كثيرة ، وكلنا تحت تأثير التشاؤم الملازم لأفكارنا ، نحول وجوهنا عنها لقلة الثقة بها ، إن لم نقل لشىء من الكراهة لها . إلا أن الواقع هو أن الجرثومة البروتوبلاسمية قد انتقلت من حى إلى حى منذ أجيال . وقد عرف أن كل وجود شخصى مهما كان حقيراً يترك بعد زواله عناصر خالدة أدبية ومادية .

« اعتاد الناس أن لا يعتقدوا بصحة الوجود إلا للآراء التى يستطيعون أن يستنبطوا منها فوائد مباشرة . والعقل الباطن بهبنا وسائل عجيبة أصلية لإصلاح صحتنا الجثمانية والنفسانية ، وهى تؤدى لنا فى سبيل تحقيق سعادتنا ، مالا تؤديه الجهود العقيمة التى نبذلها فى حياتنا اليومية . فان الانتفاع المعقول بالقوة المستكنة فى العقل الباطن تستطيع على مر الأيام أن تقلب حياتنا الشخصية والاجتماعية من طور إلى طور آخر .

فى مملكة العقل الباطن

« الرجل العامى يجهل أن المعلومات التى يعتبرها أدق شىء ليست فى الواقع إلا مدركات ضالة لمشاعرنا وعقولنا . فنحن لا نلم إلا بالمظاهر الخداعة للأشياء ، أما حقيقتها أى الحوادث على ماهى عليه فى الواقع فتتعالى عن مداركنا .

« إن الجهود التى بذلها الإنسان للوصول إلى إدراك الواقع ، أو إلى معرفة أصول الكائنات ومصائرها كانت وستكون عقيمة . هذا هو الذى قرره « كانت » بأسلوب جلى فى كتابه (نقد العقل المحض) ، وقد أثبتت العلوم الحاضرة صحة شكوكه ، وهى تلك العلوم التى تقدمت فى دراسة علاقاتنا مع العالم الخارجى دراسة تزداد كل يوم تعمقاً وتوسعاً ، ولكنها لم تستطع أن تكشف شيئاً يتعلق بالمستور المبحوث عنه بضعف عظيم منذ ظهرت المعلومات الساذجة لعلم الميتافيزيكا (أى علم العلل الأولية) .

« فالفلسفة والعلم ، وقد أدركهما الإعياء ، أصبحا يسبحان فى اللاأدرية المطلقة . وقد سلما باستحالة تخطى دائرة العلاقات الخارجية بين الناس والأشياء والقوى الطبيعية ، وحرما على نفسيهما كل استطلاع فيما وراء هذه الحدود . وجاء (أجوست كومت) بمذهبه الحسى فجعل هذا العجز المزمن عن الإدراك قانونا محترما . ولكن البرغسونية مذهب الفيلسوف

مكتبتنا العربية

المعاصر لنا (برغسون) « Bergson » استحقت الثناء بمقاومتها هذا التشاؤم المتطرف . فان نقدها الدقيق للأساليب العقيمة التي يتبعها العقل عند مايشرع فى دراسة الحياة ذاتها ، ومقابلة ذلك النقد بتمجيد قوى الوجدان وخصائصه ، قد سمح لنا بتوقع مجيء الزمن الذى نستطيع فيه أن نتقدم فى طريق إدراك ذلك المجهول (يريد بالوجدان ماتجده الإنسان فى نفسه من المدركات بدون تدخل العقل العادى فى إيجادها) .

« البرغسونية المذكورة تؤكد لنا وجود خلاف أصلى بين العلم المادى ، وهو المجال الخاص بالعقل ، وبين ظواهر الحياة والوجدان التى لايمكن فهمها إلا بقوة البديهة . فالعقل الذى يمتد سلطانه على العالم الطبيعى ، لايصلح إلا لتوليد آراء مادية ، ولكن الحياة والوجدان تتطلب أدوات أخرى للبحث عنها ؛ وما قصور العقل التأملى الذى قال به (كانت) Kant إلا حكما بقصور إدراكنا فى الواقع . فالوجدان وحده يستطيع الاتصال بحقائق الأشياء .

« إن نقد أساليب الإدراك يثبت قبل كل شيء بأنه يخضع لضرورات العمل ، ويأخذ عنه عادات وصفات محدودة ، لأننا لانفكر إلا لنعمل ، وهو لكونه مخلوقا للاشتغال بالمادة الجامدة ، يفشل إذا أراد بسط سلطانه على حوادث الحياة والوجدان ، لأنه يستخدم فيها الوسائل والأدوات التى أفاده استخدامها فى العالم الآلى . إن هندستنا ومنطقنا لايمكن أن يطبقا إلا على المادة ، والإدراك إذا حاول فهم الحياة التى هى خلق مستمر ، وتحول ونمو لاحد لهما ، يعرض للناظرين جميع ضروب قصوره بسهولة تامة . وإن تحليلنا لايدرك الشيء الذى لايقبل الانقسام ، كما لايدرك فكرنا الهندسى الحياة الساربة ، والظاهرة الطبيعية . وقد بقيت لنا لحسن حظنا قوة الغريزة ، وهى ليست متولدة من الإدراك ، ولا هى وظيفة عقلية ودنيئة ، ولكنها علم مناقض للعلم المستمد من الإدراك مباشرة ، وليست فى حاجة لبذل جهود للحصول على العلم مثله .

« فلاجل تذليل الصعوبات التى رآها (كانت) ، واجتياز هاوية الإدراك ، لنخلص من أسر الرسوم التى تحبسنا فيها ، فليس علينا إلا إنماء وتوسيع اختصاص الوجدان ، ذلك الوجدان الذى أضعفناه وضحينا به فى سبيل ذلك الإدراك .

« فالعالم سيستمر على استخدام الإدراك ، ولكن الفلسفة ستعاود التدويل على العقل ، لتربح من اتفاق الوجدان الإنسانى والأصول الحية التى يصدر هو عنها . بجرينا على هذه السنة سنفوز بإسقاط الحوائل التى منعتنا إلى اليوم من الوصول إلى سر العقل الباطن .

« بهذا الأسلوب سنتمكن من إقامة الجسر المبحوث عنه الذى سيوصلنا على مر الأيام إلى المجهول السامى ، وذلك بتشييده على الظواهر التى لايمكن الشك فيها ، أى ظواهر العقل الباطن » ؟

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

المذاهب الغنوصية
فى العالم الاسلامى

المعنى العادى لكلمة « غنوص Gnose » هو المعرفة . غير أن الكلمة بعد ذلك أخذت معنى اصطلاحيا خاصا هو « الاتجاه نحو التوصل الى المعارف العليا بنوع من الكشف » ، أو هو « محاولة تذوق المعارف الالهية تذوقا مباشرا بأن تلقى فى النفس إلقاء » . ثم أخذ مدلول الكلمة يتسع شيئا فشيئا حتى شمل تلك المذاهب الشرقية التى يتجسد فيها بجانب منهجها فى المعرفة مجموعة الطلاسم والأسرار والسحر .

والمذهب الغنوصى من أقدم المذاهب الفلسفية قدم تلك البيوت الغامضة التى كان يسيطر عليها من المدنيات القديمة الكهان والسحرة . غير أن المذهب الغنوصى الحقيقى أى الفلسفى إنما نشأ على يد بزليدس وفلنتينوس ومرقيون . وقد قاموا بمزج المذاهب المختلفة من فارسية وسريانية وأفلاطونية وفيثاغورية ورواقية بالمسيحية واليهودية . ثم كانت جنديسابور بعد ذلك موطنا من مواطن التلقيح بين غنوص الأفلاطونية الحديثة وغنوص الزرادشتية والمانوية . ويكاد يكون العصر الهلينى المجال الحيوى الأعظم لسيادة الغنوص .

وقد قاومت المسيحية هجوم الغنوص مقاومة عنيفة ، ولكن استطاع الغنوص أن يغزوها غزوا فظيعا فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين ، منهم القديس كليمانس والقديس أوريجانس . وللغنوصية تاثير شديد على فيلسوف المسيحية أو بمعنى أدق لا هوتيها القديس أو غسطينوس .

وقد قابل الاسلام الغنوص فى فتوحاته فأغلق بيوتها . ولكن الغنوص بقى كامنا ، فإذا ما هدأت الفتوح قام الغنوص بل قامت غنوصات متعددة لتقويض عقائد الاسلام ، وكان أشدها مجاهدة ، الزرادشتية والمانوية والثنوية .

وقد ظهرت هذه العقائد أحيانا فى شكل طوائف خاصة دعيت باسم الباطنية أو غلاة الشيعة أو القرامطة ، وأثرت أحيانا فى بعض الطوائف الفلسفية كأخوان الصفا .

ويكاد يكون السبب الحقيقى لقيام المتكلمين بوضع مذاهبهم هو الغنوصية . ويذكر أن المهدى هو الذى أمر هؤلاء المتكلمين بوضع الكتب فى الرد على الملاحدة من الثنوية . وذلك حين نقلت كتبهم وكتب الدهرية الى العالم الاسلامى . وينسب المسلمون هذا العمل الى جماعة من الملاحدة والزنادقة ويعدون من بينهم ابن المقفع وعبد الكريم بن أبى العوجاء . وقد قام المعتزلة بهذا العمل خير قيام . ويرى أغلب المستشرقين أمثال جولدتسيهر وأو ليرى وأر برى وبكر أن المعتزلة وهم أول مدرسة إسلامية كلامية ، توصلت إلى كثير من أصولهم ومذاهبهم من جدالهم لعقائد المانوية والزرادشتية .

بل يحاول « بكر » المستشرق الالمانى أن يثبت أنه لم يكن على الاسلام خطر أعظم من خطر الغنوصية ؛ فقد كان يحارب الاسلام دينيا وسياسيا ، ويحاول أن يثبت استعانة الاسلام

مكتبتنا العربية

بالفلسفة اليونانية لإيجاد عالم قوى يقف فى وجه تيار الغنوصية ، ويفسر بهذا حماسة المأمون لترجمة علوم اليونان ، ومحاربة الاسلام للصوفية فى عصوره المختلفة . وفى الحقيقة أن المسلمين استعانوا فى القضاء على الغنوص بعلم الكلام ، وقد نجح الكلام الى حد كبير فى عمله هذا .

وقد استطاع الغنوص أن يسيطر على الصوفية ، ونستطيع أن نجد فكرة الثنائية الغنوصية بين الله والمادة فى عقائدهم ، إذ كانت أهم مشكلة عالجتها الصوفية امتداد الوجود من الموجود الأول الى بقية الموجودات وخاصة المادية منها ، ولم تكن فكرة الخلق تجد مكانا فى هذه النظرية الطلسمية ، وعلى هذا تصدر الموجودات عن الموجود الأول ؛ فعن الذات الأولى يصدر العقل ، وعن العقل تخرج الكلمة ، وعن الكلمة يخرج الانسان الكامل ، تلك هى الموجودات العليا فى سلم الكائنات . ثم يتوسط بينها وبين المادة عدد من الموجودات الروحية تدعى « بالأيونات » تنتهى فى تدرج تنازلى بالمادة ، أصل الشر فى العالم ، ولكن الانسان يستطيع أن يصل ثانية الى العقل بنوع من التدرج التصاعدى .

هذه النظرية نجدها عند أغلب صوفية الاسلام الذين أخذوا بمبدأ الفيض ، فيض الموجودات عن الواحد أو عن الذات الأولى ، وأصبح محمد صلوات الله عليه العقل الأول أو النور ، تصدر عنه كل الوجودات ، وتفيض الكائنات العليا الروحية .

وفى اختصار ، قام المعتزلة بنقض عقائد الغنوصية وحملوا لواء هذا العمل ، وفى مقدمة هؤلاء واصل بن عطاء . يذكر ابن المرتضى فى كتاب المنية والأمل عن واصل بن عطاء : « ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم منه » . ويذكر فى موضع آخر أن لواصل كتاب « الألف مسألة فى الرد على المانوية » . وينقل إلينا عن أبى الهذيل العلاف أن « مناظراته مع المجوس والثنوية وغيرهم طويلة ممدودة . وكان يقطع الخصم بأقل كلام . يقال إنه أسلم على يده زيادة على ثلاثة آلاف رجل » . وقام بجدال الغنوصية أيضا النظام والخياط والجاحظ والقاضى عبد الجبار الهمذانى فى كتابه « تثبيت دلائل النبوة » .

ثم تولى شيوخ الأشاعرة مهاجمة الغنوصية ، فهاجمهم أبو الحسن الأشعرى ، ثم الباقلانى فى التمهيد . ثم رد عليهم الغزالى فى «فضائح الباطنية» «والقسطاس» بدون أن يعرض مذاهبهم ، ومحمد ابن مالك بن أبى الفضائل الحادى اليمانى فى كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة . ويقول ابن النديم إن من أقدم من رد عليهم أبو عبد الله محمد بن على بن رزارم الكوفى من أصحاب أبى بكر بن الأخشيد . وابن الجوزى فى تلبيس ابليس ، ثم قام تقى الدين بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية أيضا بجدال المذاهب الغنوصية جدالا عنيفا .

وقد تعددت ضحايا الغنوص ، ونخص بالذكر منهم الحلاج والسهروردى المقتول . وقد

مكتبتنا العربية

اتخذهم أتباع الغنوصية مثلا عليا للحياة الانسانية التى تستند على التأمل الباطنى الذاتى وتحاول التوصل إلى كنه الوجود من نظرة عامة شاملة ، أو تحاول أن تجد فى المخلوق صورة الخالق بالغاء ما بين الطبيعتين من تمايز .

وفى اختصار ، كان للغنوص آثار جمة فى العالم الاسلامى سواء فى الفلسفة أوفى الكلام . بل وصل أثره إلى صميم العلوم الاسلامية . فقد قامت الفرق الغنوصية فى الاسلام بوضع كثير من الأحاديث لترويج للغنوص فى قلب العقائد الاسلامية .

وقد استطاع علماء الحديث بمناهج دقيقة تمت إلى النقد الداخلى والنقد الخارجى للنص تبيين كل ما دخل إلى العالم الاسلامى من غنوصيات .

بقى علينا بعد أن نحدد بشكل عام فهم المسلمين للأصول الغنوصية عند الفارسيين ، وهى التى كان لها بجانب غنوص الأفلاطونية المحدثة السيادة المطلقة فى المذاهب الغنوصية الاسلامية.

نلاحظ أن أهم مايميز الغنوصية الفارسية هى الثنائية ، أى القول بوجود أصلين للاشياء على خلاف فى طبيعة هذين الأصلين . وتقوم هذه الثنائية ـ كما يقول Arbury فى Siternry History of Persia على فكرة أخلاقية بحتة . فقد أدى البحث بحكماء الفرس فى مشكلة الخير والشر إلى تلمس الأصول التى يقوم عليها كل واحد من هذين العنصرين . ولم يكن يستطيع واحد من حكماء الفرس القدامى تفهم صدور الفكرتين عن موجود واحد يخلقهما معا وإنما ارتفعوا بخيرية الصانع إلى أعلى مكان . فكان لابد إذن من وضع مبدأ آخر ينتج الباطل والأثم والشر . والعالم نزاع بين هاتين القوتين .

أما هاتان القوتان أو الأصلان ، فهما النور والظلمة . وبالفارسية يزدان وأهرمن . واختلفت فرق الغنوصية الفارسية فى تفهم كل واحد من هذين المبدأين : هل هما قديمان أم النور قديم والظلمة محدثة ؟ ثم كيف حدث امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة ؟ وبعض أصحاب الغنوص يصفون بشكل أسطورى الوجود وكيف تكون الوجود . وقد انقسموا فرقا : الكيومرثية ، والزروانية والمسخية والزرادشتية والمانوية والمزدكية والديصانية وغيرها من فرق متعددة .

وقد استطاع الاسلام أن يقضى على تلك المذاهب الغنوصية ، وأن يحطم الفرق التى قامت بحذو مذاهبها ، وأن يسمو بتوحيده الصافى فوقها ؟

على سامى النشار
مدرس بكلية الآداب

الغنوصية والعلم

نشرنا المقال المتقدم لحضرة الأستاذ الألمعى على سامى أفندى النشار ، فرأينا أننا بعد الذى كتبناه فى العقل الباطن واشتغال العلم به اليوم ، أصبحنا مطالبين لدى قرائنا بإبداء رأينا فيها .

مكتبتنا العربية

اتخذهم أتباع الغنوصية مثلا عليا للحياة الانسانية التى تستند على التأمل الباطنى الذاتى وتحاول التوصل إلى كنه الوجود من نظرة عامة شاملة ، أو تحاول أن تجد فى المخلوق صورة الخالق بالغاء ما بين الطبيعتين من تمايز .

وفى اختصار ، كان للغنوص آثار جمة فى العالم الاسلامى سواء فى الفلسفة أوفى الكلام . بل وصل أثره إلى صميم العلوم الاسلامية . فقد قامت الفرق الغنوصية فى الاسلام بوضع كثير من الأحاديث لترويج للغنوص فى قلب العقائد الاسلامية .

وقد استطاع علماء الحديث بمناهج دقيقة تمت إلى النقد الداخلى والنقد الخارجى للنص تبيين كل ما دخل إلى العالم الاسلامى من غنوصيات .

بقى علينا بعد أن نحدد بشكل عام فهم المسلمين للأصول الغنوصية عند الفارسيين ، وهى التى كان لها بجانب غنوص الأفلاطونية المحدثة السيادة المطلقة فى المذاهب الغنوصية الاسلامية.

نلاحظ أن أهم مايميز الغنوصية الفارسية هى الثنائية ، أى القول بوجود أصلين للاشياء على خلاف فى طبيعة هذين الأصلين . وتقوم هذه الثنائية ـ كما يقول Arbury فى Siternry History of Persia على فكرة أخلاقية بحتة . فقد أدى البحث بحكماء الفرس فى مشكلة الخير والشر إلى تلمس الأصول التى يقوم عليها كل واحد من هذين العنصرين . ولم يكن يستطيع واحد من حكماء الفرس القدامى تفهم صدور الفكرتين عن موجود واحد يخلقهما معا وإنما ارتفعوا بخيرية الصانع إلى أعلى مكان . فكان لابد إذن من وضع مبدأ آخر ينتج الباطل والأثم والشر . والعالم نزاع بين هاتين القوتين .

أما هاتان القوتان أو الأصلان ، فهما النور والظلمة . وبالفارسية يزدان وأهرمن . واختلفت فرق الغنوصية الفارسية فى تفهم كل واحد من هذين المبدأين : هل هما قديمان أم النور قديم والظلمة محدثة ؟ ثم كيف حدث امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة ؟ وبعض أصحاب الغنوص يصفون بشكل أسطورى الوجود وكيف تكون الوجود . وقد انقسموا فرقا : الكيومرثية ، والزروانية والمسخية والزرادشتية والمانوية والمزدكية والديصانية وغيرها من فرق متعددة .

وقد استطاع الاسلام أن يقضى على تلك المذاهب الغنوصية ، وأن يحطم الفرق التى قامت بحذو مذاهبها ، وأن يسمو بتوحيده الصافى فوقها ؟

على سامى النشار
مدرس بكلية الآداب

الغنوصية والعلم

نشرنا المقال المتقدم لحضرة الأستاذ الألمعى على سامى أفندى النشار ، فرأينا أننا بعد الذى كتبناه فى العقل الباطن واشتغال العلم به اليوم ، أصبحنا مطالبين لدى قرائنا بإبداء رأينا فيها .

مكتبتنا العربية

إن مسألة التوصل إلى المعارف العليا من طريق الكشف ، أو بأن تلقى فى النفس إلقاء ، هى مسألة الوحى والإلهام نفسها ، وهما أساسا الأديان فى جميع العصور ، وقد نصت كتبها جميعاً على أن الله تعالى يوحى إلى الأنبياء والمرسلين ، وإلهم الأتقياء والصالحين ، ولم يعترض على هذا الأصل معترض من القائلين بصحة الأديان ، رغماً عن انقساماتهم المذهبية ، وخاصة المسلمين ، فليس فى متكلميهم من ينكر العلم اللدنى الذى ذكره الله فى كتابه بقوله : « وعلمناه من لدنا علماً » .

فاذا شاركت الملل الباطلة الأديانَ السماوية فى القول بالعلم اللدنى وبالإلهام ، فلا يضر ذلك الأديان السماوية . وقد تولى حماة الأديان الرد عليهم فيما هم عليه من مبدأ التعديد والتثنية ، والتشبيه وغيرها من ضلالات وخيالات لاحقيقة لها ، ولم يردوا عليهم فى القول بوجود علم علوى يلقى إلى النفوس المستعدة له إلقاء ، بدليل أن ممن رد عليهم ، الأئمة : ابن تيمية ، وابن القيم ، والباقلانى ، والأشعرى ، والغزالى ، وليس فيهم واحد ينفى وجود علم لدنى يلقى إلى النفس إلقاء .

ولا ينكر هذا الأصل العام لجميع الأديان إلا المذهب المادى ، وهو ينكر قبل ذلك وجود خالق للكون يمد رسله بالعلم من طريق الوحى ، وأولياءه بالمعارف العالية من طريق الإلهام .

على أن مانحن بسبيله من وجود شخصية باطنية للإنسان غير شخصيته العادية ، تمد الإنسان أحيانا بما لايدور بخلده من بعض المعارف ، وتحل له فى حالتى النوم الطبيعى أو المغناطيسى مسائل عجز عن حلها وهو صاح ، فهى مسألة علمية كشفها التنويم الصناعى ، وسميت بالعقل الباطن ، وأصبحت حقيقة واقعة ابتنت عليها محاولات علاجية نجحت نجاحا عظيما فى كثير من الحالات المرضية المستعصية ؛ وقد أفضنا فى الكلام عنها فى هذه المجلة ، ونقلنا عنها فى هذا العدد مقالا للفيلسوف الفرنسى (جان فينو) .

هذه مسألة أصبحت هامة للدرجة القصوى ، فانها تهد المذهب المادى من أساسه ، وتثبت وجود عالم روحانى تستمد منه الروح وجودها ، وتنتهى إليه بعد وفاتها ؛ وهى ليست مؤيدة بواسطة التنويم المغناطيسى فحسب ، ولكن بوجود العبقرية فى بعض أفراد النوع البشرى فعلا . والعبقرية معرفة مفاجئة بشئ من الأشياء يجدها إنسان فى نفسه لم يكن قد فكر فيها أصلا ، يؤتاها على غير مثال سابق ، فيقابلها الناس بإعجاب كبير ، ويرفعون من أتى بها إلى درجة الخالدين .

وقد عنى علماء كثيرون بدراسة العقل الباطن ، وجمعوا فى وجوده أدلة علمية لايمكن التمارى فيها ، وصدرت فيه مؤلفات لاحصر لها ، من أعلاها قيمة كتاب الشخصية الإنسانية The human personality للأستاذ الكبير (ميرس) F. W. H. Myers مدرس

مكتبتنا العربية

البسيكولوجيا فى جامعة كمبردج ، فقد توسع فيه إلى حد بعيد ، وأتى فيه بما يثبته إثباتا لاتردد معه .

ومما أورده فيه من شهادات كبار العلماء تجارب العلامة الفلكى الإنجليزى المشهور (هرشل) والرياضى الكبير (أراغو) ، والفيلسوف (كوندياك) ، والوزير الخطير (لامارتين) ، والشاعر المبدع (موسيه) وكلهم من الفرنسيين ، ولا سبيل إلى تعداد غيرهم ، ولا تفصيل تجاربهم فى هذه المجالة .

فالشخصية الباطنية قد أصبحت بفضل هذه الجهود العظيمة حقيقة لامرية فيها ، وإمدادها للإنسان من الباطن بالمعرفة من غير طريق الحواس الخمس قد انتقلت إلى رتبة البدائه العلمية .

فاذا كانت الفرق والمذاهب التى انتحلت هذه الخاصة الإنسانية ، فبنت حولها أضاليل ، فى كل زمان تبنى الفرق والمذاهب أضاليل اعتماداً على الحقائق المقررة ، فتزول تلك الأضاليل ، وتبقى الحقائق ثابتة لاتتغير .

فكان مما اعترف به العلامة الفلكى الانجليزى « السيرجون هرشل Sir G. Herschel » بعد أن ذكر ماألقى إليه من بعض الأمور الرياضية إلقاء بدون تفكير قوله : « فنحن هنا إزاء فكر أو عقل يعمل فينا ولكن مستقلا عن شخصيتنا العادية » .

وقال الفيلسوف الفرنسى الكبير (ريبو) صاحب البحوث البسيكولوجية العظيمة المتوفى سنة (١٩١٦) : « إن مايسمونه عادة بالإلهام هو ثمرة فعل العقل الباطن . هذه الحالة من الحوادث الواقعية وتكشف عن الخصائص الطبيعية والأدبية للعقل المذكور . وهو غير شخصى ولا يخضع للإرادة ، ويعمل على شاكلة الغرائز الطبيعية متى وكيف أراد » .

وقال الشاعر النابغة ألفريد موسيه المتوفى سنة ١٨٨٠ : « لست أنا الذى أعمل هذا الشعر وإنما أنا أسمعه من كائن مجهول يلقيه فى أذنى فأكتبه » .

وقال القصصى المشهور (سان سايينس Saint Saëns) المتوفى سنة (١٩٢١) : « أنا عند ما أريد كتابة قصة يخيل إلىَّ أنى أحضر تمثيلها كأحد النظارة ، فأنظر إلى ماهو حادث فوق المسرح منتظراً بصبر نافد ماسينجدد من حوادثها وأنا دهش مما أرى وأسمع ولكنى أحس فى الوقت نفسه بأن كل ذلك آت من أعماق ذاتى » .

كل هذا وأشباهه مما غصت به كتب الفيزيولوجيا الحديثة أثبتت نظرية الأستاذ (ميرس) مدرس البسيكولوجيا فى جامة كمبردج وأيدتها التجارب فى التنويم المغناطيسى العميق ، وهى أن للانسان شخصية باطنة أرقى من شخصيته الظاهرة وفيها قوى ذاتية ليست فى هذه ولا فى الحواس مجتمعة ، وهى التى توجد الالهامات العالية ، وتولد العبقريات الضرورية لتطور النوع الانسانى ، مما سنطرف القراء بانبائه فى كل فرصة ؟

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

نظرة في تاريخ الاسلام

فى مناسبة فاتحة السنة الهجرية

فى القرن السادس الميلادى بلغ العالم نضجه العقلى ، وكان فى كل دور من أدوار طفولته يبعث إليه الله بشريعة سماوية تتناسب وعقليته ، حتى إذا بلغ دور الرجولة بعث إليه الله بشريعة عامة خالدة ختمت بها الشرائع ، على لسان رسول كريم ختمت به الرسل .

بعث محمد بن عبد الله النبي الأمى من هذه الأمة الأمية التى قدر لها أن تغير وجه العالم ، وأن تحول دفة التاريخ ، وأن ترسم المثل العليا للإنسانية — ولم يبعث من إحدى الدولتين المتحضرتين اللتين كانتا تقتسمان العالم فى ذلك العهد — ليحمل فى يده معجزته الخالدة الباقية ؛ فهو لم يكن من المصلحين الذين تتلمذوا على جهابذة العلم ، وتدرجوا فى مدارج المعارف ، وإنما هو نفحة ربانية شملت هذا العالم من أقصاه إلى أقصاه . وفى بعثته على هذا النحو إثبات أن فى الوجود إلهاً مختاراً تتخلف لإرادته النواميس متى أراد ، فبعثه على فترة من الرسل لفك أغلال الإنسانية ، ونشر دين قائم على أصول العقل والعلم ، يصلح به منازغ من العقائد ، ويجدد ما رث من التقاليد ، وما بلى من العادات ؛ فعاداه أهله وعشيرته . وفى هذا معجزة أخرى له تدل على أن الله ينصر رسله ويؤيدهم مهما عودوا ومهما قامت الصعاب فى وجوههم .

جهر محمد بن عبد الله بدعوته وسط هذه الجهالة الجهلاء ، والظلمات المتراكبة ، فقامت قريش على بكرة أبيها تدفع عن آلهتها باللسن ، فلم ينفعها اللسن ، وبالكيد ، فلم يجدها الكيد ، وبالملاينة ، فلم تبلغ بها مأربا ، فلجأت إلى الشدة والعدوان . ولكن أنى لقريش أن تنال ممن يؤيده ويشد أزره الملأ الأعلى ؟ .

افتنت قريش فى إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل من اتصل به ؛ فصبر المسلمون صبر أمثالهم من أنصار المرسلين ، واستمر المشركون فى اضطهادهم أكثر من عشر سنين ، حتى تسنى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتفق وأهل المدينة على أن يهاجر إليهم هو ومن آمن معه ، وتم ذلك فكان فاتحة النصر للمؤمنين .

كان أول ماعنى به النبي صلى الله عليه وسلم تقوية وطائد المجتمع الإسلامى الناشئ ، وإيتائه بالوسائل التى تبقيه قائماً مدى الدهور ؛ أما قريش فلم تكف أذاها ، ولم تفتأ تؤلب عليه

مكتبتنا العربية

العرب ؛ ويهود المدينة قد آلمهم أن القرآن قد كشف عن مساوئهم ، فصاروا لايهدأ لهم بال حتى يبطلوا حجته ويئلوا عرشه ؛ وأعراب البوادى يضرهم أن تقوم فى بلاد العرب جماعة تدعو لنظام ، وتضرب عليهم الإتاوات لإقامة دولة .

هذه العقبات كانت ماثلة فى كل ناحية من بلاد العرب ، فكان النبى والمسلمون ينتظرون أن يهديهم الله لأقوم السبل لحفظ مجتمعهم ؛ لأن أقوى العقول البشرية تعجز أن تعالج موقفاً من هذا الطراز لم تقفه أمة قبلهم . فهدى الله رسوله أن يبدأ قريشاً بالمفاضبة ، فأرسل من يحول بين تجارتها وبين حرية المرور إلى الشام، متحملين تبعة ماينجم عن ذلك من تذمر قريش وخفوفها لتأمين طريق تجارتها بالقوة ، لأنها لاتستطيع الصبر على قطع مواصلاتها التجارية التى كانت عليها حياتها . فأخذت فى أول الأمر تقوى حرس قوافلها ، فتحدث بينهم وبين المغيرين عليها من المسلمين مناوشات ، فكانت تارة تنجو من قبضتهم وتارة تقع غنيمة باردة ، حتى ضاق ذرعها ، وعزمت أن تتجرد لحمايتها بشدة .

فاتفق أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج بنفسه لملاقاة تجارة قريش وهى فى طريقها إلى الشام ، واتفق أيضاً أن أبا سفيان بن حرب سيد قريش وقائد جنودها كان على رأس القوة الحارسة لتلك القافلة فى نحو ألف رجل من قريش ، فلم تحدث مصادمة بين الفريقين ، لأن القافلة كانت قد أفلتت ، وكان حريصاً على أن لاتفلت ، فاضطر أن ينتظر عودها . فلما عادت تربص لها فى نحو ثلاثمائة من أتباعه ، وبلغ أبا سفيان أن النبى عزم على أن يلقاه بنفسه ، فأرسل وهو عائد إلى قريش من يخبرها بما انتواه النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنجده أبو جهل على رأس نحو ألف من أشد المشركين ، وعمد أبو سفيان إلى الحيلة فلم يعد من الطريق المعهود وسلك غيره فنجا ونجت القافلة . بقيت القوة التى كانت مع أبى جهل ، فلم يرد أن يعود بها بعد نجاة القافلة حتى يضرب ضربة موجعة تردع المسلمين عن معاكسة تجارة قريش ، كما فعلوا وحاولوا أن يفعلوا أكثر من مرة .

وصلت كل هذه الأخبار إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن قد أعد لهذه الحرب عدة ، لأنه كان خرج لمناوشة حماة قافلة ، وهم مهما بلغ من عددهم لايجاوزون المائة أو المائتين . والمسلمون فى حالتهم تلك إزاء جيش المشركين لايبلغون ثلثه ، فضلا عن أن للحروب ضروريات أخرى كان يجب أن تستوفى .

كان الموقف عصيباً ، فلم ير النبى صلى الله عليه وسلم ومن كانوا معه إلا الخضوع للأمر الواقع ، والدخول فى حرب مع خصومهم على ما كانوا عليه من قلة فى الرجال والعتاد . على أن النبى

مكتبتنا العربية

لم يقصر فى استشارتهم قبل بدء الحرب، فأجمعوا على أن المضى فى الحرب خير من الركون إلى السلم، فقد يجر لما لا تحمد عقباه.

ويجدر بنا هنا أن نأتى على صورة ماحدث عند ماستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى هذا الموقف الحرج ليدرك القراء مبلغ ما كان عليه المسلمون من الثقة فى الله، ومن الاستهانة بالعظائم فى سبيل نصرة دينه.

طلب صلى الله عليه وسلم رأيهم فبدره المقداد بن الأسود بقوله: «يارسول الله امض فيما أمرك الله، فنحن معك، والله لانقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون».

ولكن النبى أراد أن يعرف رأى الأنصار فى هذا الأمر لأن عليهم تقع آثاره، ولم يرد أن يوجه القول إليهم، ولكنه قال: أشيروا على أيها الناس. ففطنوا إلى أنه يريدهم، فوقف سعد بن معاذ صاحب رايتهم وقال: لكأنك تريدنا يارسول الله؟ قال أجل، قال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر فى الحرب، صُدُق فى اللقاء، ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

هنا ظهر البشر على محيا الرسول وقال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.

التقى الجمعان، وكانت موقعة بدر الكبرى التى انتصر فيها محمد وأصحابه، وانتصرت بانتصارهم تلك الشريعة الخالدة، وهذه المبادئ السامية. دارت الدائرة على قريش فكانت تلك مقدمة لما سينال المشركين وباطلهم.

لانريد أن أدخل الآن فى تفاصيل الموقعة فذلك أمر قد عنيت به كتب السير، ولكن لايفوتنى أن أذكر أن هذه الوقعة المتواضعة بين فريقين لم يزد أحدهما على ثلاثمائة إلا قليلا، وثانيهما يبلغ ثلاثة أمثاله، هذه الموقعة غيرت وجه التاريخ، وعدلت خريطة العالم، ورسمت له سياسة العدل والمساواة والحرية، تلك التى يحلم بها الفلاسفة فى نواديهم، ولم تتحقق خارج أذهانهم إلا فى تلك الفئة التى حملت لواءها، وركزت قواعدها فى العالم أجمع.

يرى بعض المستشرقين فى حروب الإسلام مغمزاً، فيرفعون عقائرهم بأن الإسلام ألزم الناس عقائده بقوة السيف لابقوة الإقناع، وأنه مثّل أدواراً من الوحشية إذ أراق الدماء فى سبيل التحكم فى عقائد الناس وعقائدهم.

مكتبتنا العربية

فلا أدرى كيف تستسيغ تلك العقول المتحضرة هذه الدعوى الباطلة ، ولو أنهم كانوا عنوا بدراسة الإسلام لعرفوا أن الإسلام لم يشرع الحرب من أجل العقيدة إلا بالنسبة لجزيرة العرب ، وخيَّر بقية الأمم بين الجزية وبين الإسلام . فان قلت : ولم قرر حمل العرب على الإسلام بالقوة ؟ نقول : لأن مهمته العالمية تقتضى أن تكون له دولة يعتمد عليها . وإلا فكيف كان يمكنه أن يؤدى مهمته العالمية بمحض الدعوة ؟ ولم تنجح دعوة دينية فى الأرض إلا على هذا النحو حتى المسيحية ، فانها بقيت أكثر من ثلاثة قرون مستضعفة مضطهدة حتى وجدت لها دولة تحميها بعد أن ذاق أهلها ألوان العذاب مما تقشعر الأبدان من روايته . والإسلام وإن لم يحرم على أهله الحرب ، إن دعت الحاجة الاجتماعية إليها ، فانه أحاطها بكل ضروب التلطيف ، فنهى عن الإجهاز على الجرحى ، وعن تعذيب الأسرى ، وعن قتل النساء والشيوخ والولدان ، وامتدت رحمته حتى تناولت خدم المحاربين ممن يقومون بحاجاتهم ولا يحاربون معهم ، ونهى عن هدم الدور والمدن وإحراق الشجر ، وعن تعقب المهزومين والتنكيل بهم ، وهذه ملطفات لويلات الحروب لم يبلغ مداها المتمدنون إلى اليوم . وصرح الإسلام بأنه إن ارتفع صوت بوجوب تقرير سلام عام وجب على المسلمين تلبيته ،فقال الله فى ذلك : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

يعيبون على الإسلام أن يبث فى نفوس أبنائه روح العزة والكرامة وعدم الرضا بالضيم ، وهو ماتفعله كل أمة تشعر بشرفها ، ولكنه لايبث هذه الروح لتكون مدعاة لاحتقار المسلمين لغيرهم لأنه علمهم أن الناس كلهم سواء ، وأن لهم جميعاً أباً واحداً وأماً واحدة ، وأن الناس خلقوا ليتعارفوا ويتحابوا لاليتناكروا ويتخاصموا بسبب اختلافهم فى الأجناس واللغات ، فقد قال تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وهذا مايدل عليه تاريخ المسلمين جملة وتفصيلا .

فاذا كنا نبحث الآن عن دواء لهذا التأخر وذلك الضعف فليس إلا كتاب الله نهتدى بهديه ونتلمس النور الوضاح بين آيه وسطوره ؟

حسين أحمد المصرى

مكتبتنا العربية

اعجاز القرآن

للباقلانى

من هو الباقلانى ؟

هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلانى .

نشاته :

فى هذه البيئة العامرة بالعلم الزاخرة بالأدب ورجال الحكمة وفرسان البيان وحفاظ الدين ، فى البصرة مدينة العلم والنور ، فى ذلك الوقت (القرن الرابع) نشأ الباقلانى نشأة النبوغ والعبقرية ، فكان من خيرة الناشئين فى الاسلام الذابين عنه بقوة علمهم وبيانهم ، فقد كان قوى الحجة سريع الذهن ذرب اللسان ، لايناظر إلا غلب ، ولا يسابق إلا فاز وسبق .

شيوخه :

أرض طيبة وبذر صالح ، وباذر حكيم خبير ، هكذا كان استعداده الفطرى للنبوغ ، وهكذا وفق شيوخه الأعلام لان يوجهوه خير وجهة ، بما لقنوه من حكمة ، وبما علموه من بيان ، وهكذا شب فى العلم وللعلم وحده ، فكان فارس الحلبة وواحد العصر . وكيف لا ومن شيوخه ابن مجاهد الطائى ؟ وعنه أخذ علم الكلام وفقه مالك بن أنس ، وأبو الحسن الباهلى ، والأبهرى أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح ، والنيسابورى أبو احمد الحسين بن على ، وغيرهم ممن كانت لهم فى العلم جولات موفقة وفى الدين آراء ، ومع دعاة الملل محاورات حفظوا بها الدين وألجموا الخصوم .

مؤلفاته :

عن هؤلاء الشيوخ تلقى الرجل الحكمة والبيان ، فليس بدعا أن ينتج لنا هذا الأثر الخالد (إعجاز القرآن) ، وإنما العجب أن لا ينتج غيره ، وهو قد أنتج ولكن يد البلى لا ترحم ، فقد عدت العوادى على مصنفات هذا العالم الأديب فلم تبق لنا منها غير هذا الأثر الوحيد وغير أسماء عدة تصانيف (١) لم نرها بعد ، ولعلنا لو عثرنا على شىء منها أو من غيرها مما لم يروه لنا التاريخ لاستطعنا أن نحدد مكانة الرجل فى عصره بين العلماء على وجه يقرب من الواقع ، ولا نكشف القناع عن كثير من الحقائق التى زيفها الحدس وشوهها رجم الأدعياء المجازفين

---

(١) من هذه التصانيف كتاب فى (الملل والنحل) وآخر يدعى (الانتصار) وثالث اسمه (كشف أسرار الباطنية) . ثم ذلك الكتاب الذى ألفه لابن عضد الدولة (التمهيد) .

مكتبتنا العربية

بما لا علم لهم به مما يسمونه بحثا مرة واستنباطا أخرى ، ويعلم الله أنه ليس من البحث ولا الاستنباط فى قليل ولا كثير . على أن فى بقاء هذا الأثر ما يهدينا الى الكشف عن بعض نواحى قوة الرجل فى العلم وبعد غوره فى الفهم لكتاب الله والوقوف على أسرار الاعجاز ، ويقفنا على أطراف من العلوم ونبذ من الفنون التى نبغ فيها هذا الامام : من الدين ، وعلوم القرآن ، أو من البلاغة وعلوم البيان ، فهو قد طرق كل ذلك وغير ذلك فى هذا الأثر الخطير (إعجاز القرآن) .

مذهبه :

كان من فقهاء المالكية ، عده صاحب الديباج المذهب من الطبقة السابعة من أهل العراق . ثم هو بعد أشعرى له فى علم الكلام آراء تنسب اليه ، ولشدة قيامه على نصرة مذهب الأشعرى صار يقال له الأشعرى حتى التبس الأمر على بعض الناس ، فإذا عزى أمر الى القاضى أبى بكر الأشعرى (أى الباقلانى) ظن أن المراد أبو الحسن الأشعرى . ثم نشأ عن هذا اللبس لبس آخر ؛ فإذا قيل الأشعرى (أى الباقلانى) مالكى ، ظن أن أبا الحسن الأشعرى مالكى وهو شافعى . ومنشأ ذلك كله اشتهار الباقلانى بالأشعرى .

طرف من سيرته :

كان حسن السيرة عالى الهمة ، فلم تحفظ عليه زلة ولم تنسب إليه نقيصة ، فهو ورع تقى ، وهو عالم عبقرى ، خدم الدين وجادل خصومه ، وناضل الملحدين ودعاة الملل ، ففند آراءهم وأذل كبرياءهم بقوة الحجة وسرعة الخاطر وحسن البيان . فهو كما قال ابن برهان النحوى حسن المناظرة قوى الحجة لطيف العبارة ، من سمع مناظرته لم يستلذ بعدها بسماع كلام أحد من المتكلمين والفقهاء والخطباء والمترسلين ، ولا الأغانى أيضا ، من طيب كلامه وفصاحته وحسن نظامه وإشارته .

وهو كما قال فيه وفى زميليه فى الدرس والعلم (الاسفرايينى وابن فورك) الصاحبُ بن عباد الوزير الأديب « ابن الباقلانى بحر مغرق وابن فورك صل مطرق والاسفرايينى نار تحرق » .

قال الحافظ ابن عساكر : وكأن روح القدس نفث فى روع الصاحب ابن عباد حيث أخبر عن هؤلاء الثلاثة بما هو حقيقة الحال فيهم .

وعلى الجملة كانت حياته كلها خيرا وبركة على المسلمين ؛ فنهاره وأكثر ليله فى إلقاء الدروس على هؤلاء المزدحمين على بابه من نوابغ الطلبة ، أو على رجال المذاهب وأعيان الدولة ودعاة النحل فى هذه الحلقة العظيمة التى كانوا يجلسون إليه فيها فى جامع المنصور ببغداد . أو فى التأليف والتصنيف إذا هجع الكون وسكن وصلى العشاء وفرغ للبحث الهادئ والتفكير

مكتبتنا العربية

السليم ، فقد روي أنه كان يصنف كل ليلة خمسا وثلاثين ورقة من حفظه ثم ينام ، فاذا استيقظ وصلى الفجر دفع بما كان كتب الى بعض أصحابه فقرأه عليه فيملي عليه بعض الزيادات من حفظه كذلك ، فلم يكن يرجع الى تصانيف الناس من سعة صدره وقوة حافظته .

ظهوره :

قد تختفي العبقرية حينا وراء مشاغل الحياة وأحقاد الزمن ، ولكنها لا بد أن تطغى على الأحقاد والمشاغل يوما ما فتظهر للناس بجلالها وسموها ثم ترغمهم على الأذعان لها والاعتراف بحقها .

وهكذا كان الباقلاني ؛ فقد ظلت حياته تسير هذا السير الهادئ البطيء بين الكتب وحلقات الدروس حتى هيئت الظروف لعبقريته الطاغية فسفرت وأقرها العلم واعترف بها الزمن :

كانت شيراز معقل المعتزلة ، وكانت شوكتهم فيها وفي العراق قوية في ذلك الحين . وكان قاضي القضاة بشيراز معتزليا ، فجرى بينه يوما وبين عضد الدولة (فناخسرو) حوار سفه فيه القاضي أحلام أهل السنة وانتقص من عقليتهم ، فهم - على مايزعم - عوام رعاع أصحاب تقليد يروون الخبر وضده ويعتقدونهما معا وأحدهما لو يعلمون ناسخ للثاني أو متأول ... إلى آخر مازعم ، الأمر الذي أسخط عضد الدولة على القاضي والمعتزلة جميعا ؛ فمحال أن يخلو مذهب من ناصرين له ذابين عنه ، ولا بد أن يبحث في زوايا الأرض عن مناظرين من أهل السنة يقرعون حجة القوم بالحجة ويضعدون الدليل بالدليل . ويصر الملك على ذلك ويضطر القاضي إليه فيذعن لأمر الملك ويخبره أن بالبصرة رجلين : شيخا وشابا ، أما الشيخ فهو أبو الحسن الباهلي ، وأما الشاب فهو أبو بكر الباقلاني ، ويرسل الملك في طلبهما ويبعث لنفقتهما مالا من أطيب المال . ويمتنع الباهلي ... فالقوم فسقة لايحل له أن يطأ بساطهم ... ويذهب الباقلاني حرصا على الدين وجهادا في سبيل الحق ... فيحاج القوم ويناظرهم حتى يقطعهم .

من يومئذ وقع من نفس الملك أحسن موقع ، ونزل منه خير منزلة ، ووثق به ثقة جعلته يدفع إليه بابنه ليعلمه مذهب أهل السنة . فقام بما عهد إليه خير قيام وألف له كتاب « التمهيد » . وهكذا ظهرت عبقرية هذا الامام واطرد له الحظ حتى أسفره عضد الدولة إلى ملك الروم سنة ٣٧١ إحدى وسبعين وثلاثمائة في جواب رسالة وردت منه فقام بمهمته بما عهد فيه من الكياسة والفطنة وترك وراءه أثرا لاتمحوه الدهور .

سرعة خاطره وقوة حجته :

في هذه السفرة إلى ملك الروم تجلت سرعة الخاطر وحدة الذهن عن هذا العبقري النابغ ، فقد كان من مراسم الدخول عند هذا الملك أن يقبل الزائر الأرض بين يديه . . . وكان القوم يعلمون سلفا أن الباقلاني لن يذعن لتقاليدهم هذه ، فاحتالوا لاجباره على ذلك بان جعلوا سرير الملك أمام باب منخفض حتى يضطر الانحناء فيكون على هيئة الراكع . . . ولكن

مكتبتنا العربية

الباقلانى بما فطر عليه من حدة الذهن وسرعة الخاطر يفطن لما أريد به . . فيدير ظهره ويستدبر الباب ويدخل منحنيا ماشيا إلى خلفه ، فاذا صار بداخل المكان اعتدل واستقبل الملك منتصب القامة مرفوع الجبين . وهكذا فوت عليهم بسرعة بديهته ما أرادوه عليه وأرغمهم على احترامه وإكباره .

وأراد مرة أن يسخر من كبير المطارنة وهو فى عاصمة الروم فقال له محييا : كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فاغتاظ المطران وأنكر ما سمع وقال للباقلانى ساخرا محنقا : ذكر من أرسلك فى كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ومتقدم على علماء الملة ، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الأهل والأولاد ؟

فأجابه الباقلانى : رأينا كم لا تنزهون الله سبحانه عن الأهل والأولاد ، فهل المطارنة عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه ؟ !

وأراد كبير الروم أن يخزى القاضى فأخزاه هو وفضحه وأخجله ؛ قال له كبيرهم ساخرا : أخبرنى عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ، فأجابه : هما اثنتان قيل فيهما ما قيل : زوج نبينا ومريم أم المسيح ، فأما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها وقد برأها الله مما رميتا به . فأفحم الرجل وانقطع ولم يحر جوابا .

وهكذا كان أمامنا شعلة من الذكاء وسرعة الذهن وحدة الخاطر . مارس العلم حتى انقاد له جامحه وذل صعبه ، وانتهت إليه الرياسة فى مذهبه . كان كما قال عنه «ابن خلكان» : أوحد زمانه موصوفا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب ، كثير التطويل فى المناظرة ، مشهورا بذلك عند الجماعة . جرى يوما بينه وبين أبى سعيد الهارونى مناظرة أكثر القاضى أبو بكر فيها الكلام ووسع العبارة وزاد فى الاسهاب ، ثم التفت إلى الحاضرين وقال اشهدوا على أنه إن أعاد ما قلت لا غير لم أطالبه بالجواب . فقال الهارونى : اشهدوا على أنه إن أعاد كلام نفسه سلمت له ما قال !

« وتوفى القاضى أبو بكر المذكور آخر يوم السبت ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة ببغداد ، رحمه الله تعالى .

ورثاه بعض شعراء عصره بقوله :

انظر إلى جبل تمشى الرجال به ... وانظر إلى القبر ما يحوى من الصلف
وانظر إلى صارم الأسلام مغتمدا ... وانظر إلى درة الأسلام فى الصدف

وصلى عليه ابنه الحسن ودفنه فى داره بدرب المجوس ، ثم نقل بعد ذلك فدفن فى مقبرة باب حرب » .

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل العظيم ، فانتهت بها حياة حافلة بجلائل الأعمال وأعظم الأيادى على الأسلام والمسلمين . هذه الأيادى التى لم يبق لنا منها إلا هذا الأثر الوحيد (إعجاز القرآن) ولكنه أثر خالد وجليل ؟ « يتبع »

يوسف اليوسى
بتخصص البلاغة والأدب

مكتبتنا العربية

عظمة الله

فى خلق السموات والأرض

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

هذه آيات من الكتاب الكريم تعرض علينا مظهرا رائعا من مظاهر القدرة الإلهية فى خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات بينات ، وقد تكرر فيه لفت الأنظار والعقول الى هذه الابداعات الكونية ، ودعا الى استعراضها والتفكير فيها ، ولم يترك مجموعة من مجاميعها إلا نوه بها ودعا الى التأمل فى عجائبها ، فقال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، وقال : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » وقال : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » .

فأى شىء أعظم تأثيرا فى نفوس علماء الطبيعة الذين يقولون بأنها مستقر جميع القوى ، ومستودع كل ما يتصور من العوامل المرقية ، من أن يجعل الاسلام التأمل فيها من دواعى الهدى ، وموجبات التقى ؟

هذا ومن يتتبع ما ورد فى الكتاب من الدعوة الى النظر فى جميع عوالم الكون من نباتية وحيوانية ، حتى ما صغر من حشراتها كالنمل والنحل والبعوض ، وفى المياه والأنهار والسحب والرياح والجبال والألوان واللغات ، وفى جعله النظر فى كل هذه الكائنات سبيلا للاتصال بقيوم الوجود ، وروحه المدبر ، قلنا من يتتبع هذا كله فى الكتاب الكريم يتحقق أن أتباع هذا الدين يجب أن يسبقوا جميع الأمم الى الكمال العلمى ، ولا بد لهم من الفوز بزعامته دون بقية البشر . وهذا هو الذى حصل ، فلم يمض على المسلمين أكثر من مائتى سنة حتى بلغوا من العلم بالوجود شأوا لم يصل اليه من كان قبلهم ، واعترفت أعرق الأمم العلمية لهم بالزعامة فيه ، ووصلوا الى ما يستتبع تلك الأثرة العلمية من أسرار الصنائع والفنون ، ومساتير الوسائل والأساليب مكنتهم من أن يؤسسوا مدنية فاضلة عم الأرض نورها

مكتبتنا العربية

واستفاد الناس من إشعاعاته ما هداهم الى أسباب التطور ، فكانت نهضة عامة ، وكان انتقال شامل ، أنقذ الانسانية من جمود لبثت فيه ألف سنة أو تزيد .

قال العلامة (دريبر) المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه (المناعة بين العلم والدين) كما نقله عنه الى العربية الأستاذ الكبير مدير هذه المجلة ، قال :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة (٦٣٨) م ، أى بعد موت (محمد) بست سنين . ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية ، وقدروها قدرها الصحيح . ولما آلت الخلافة الى المأمون سنة (٨١٣) م ، صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى فى الأرض ، وجمع الخليفة اليها كتبا لا تحصى ، وقرب اليه العلماء ، وبالغ فى الحفاوة بهم .

« هذا المركز الذى اكتسبه المسلمون ، وهذا الذوق السليم فى العلم استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت مملكتهم الى ثلاثة أقسام . فإن العباسيين فى آسيا ، والفاطميين فى مصر ، والأمويين فى أسبانيا ، لم يكونوا متناظرين متنافسين على الحكومه فقط ، بل كانوا كذلك فى الآداب والعلوم أيضا .

ثم أخذ الأستاذ المؤلف يعدد مآثرهم فى العلوم الطبيعية فقال :

« كان شعار المسلمين فى أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العلمي الحسى ، وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . ويلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدرو ستاتيك (توازن السوائل وضغطها على أو عيتها) ، ونظريات الضوء والأبصار أنهم قد اهتدوا الى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات .

« هذا هو الذى مكن المسلمين من أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والأماعة والتصفية الخ ، وهذا بعينه أيضا هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة ، والسطوح المعلمة والاسطرلابات (آلات لقياس أبعاد الكواكب) ، وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته ؛ وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للاجسام والازياج الفلكية (هى جداول تعرف منها حركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند ، وهو أيضا الذى أوجد لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات ، وهو الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية » . الخ الخ .

نقول : هذا كله حصله المسلمون ببركة الاسلام لا سواه ، فإن إكثار الكتاب لهم بضرب الأمثال العلمية ، وحضهم على التأمل فى الظواهر الطبيعية ، أو جد لهم غراما شديدا باستكشاف مساتير الحوادث الوجودية ، واستكناه علل المساتير الطبيعية .

مكتبتنا العربية

والاسلام كما أوجد لهم الخلافة العلمية فى الأرض ، أوجد لهم أيضا الخلافة السياسية ، فكانوا يتصرفون فى الشؤن العالمية العظيمة تصرف الدول ذات النفوذ العالمى البعيد المدى .

يعجب بعض الغربيين من أن علماء الدين الاسلاميين سمحوا للناس بالتوسع فى علم الطبيعة، والتجرد لدراسته الى هـذا الحد ، مع أن غيرهم كانوا يحرقون المشتغلين به بالنار ، ولو كانوا أجادوا التأمل فى أصول الاسلام لبطل تعجبهم وأعجبوا بحكمة هـذا الدين أيما إعجاب . ذلك أن الاسلام صغر العلم الانسانى فى أعله فقال . « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ثم جعل للعلماء ميزة على الجهلاء فقـال : « هـل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب » ، ثم حصر خشية الله على وجهها الأكمل فى الذين يعلمون فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وذلك بعد ذكره لعدة ظواهر طبيعية من نزول المطر من السماء وخروج النباتات والثمار من الأرض ، ومن الطـرق ذات الألوان فى الجبال ، ومن تخـالف الناس والدواب والمواشى فى الألوان . والحقيقة أن هذه الأمور كلها مواطن تأمل وتفكير ، وبحث وتعليل ؛ ولما كان الاشتغال بذلك موصلا الى معـرفة الله ، نشأ عند المسلمين غـرام شديد بالاشتغال بهذه المسائل ، ومن كثرة الاشتغال بها انكشفت لهم مسـاتير كثير من شئون الـكون فبنوا علمهم على النظر والمشاهدة والتجربة ، فكانوا أبرع أهـل زمانهم فى العلوم الطبيعية ، وأمهر الناس فيما يتولد عنه من صناعات وفنون ووسائل حيوية .

قال الاستاذ (دريبر) المار ذكره :

« إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا فى التقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم . فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد ، وتربية الحيوانات ، وسن النظامات الزراعية الحكيمة ، وادخال زراعة الارز والسكر والبن ، وانتشرت المعامل والصنائع لكل أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن ، وكانوا يذيبون المعادن ويجرون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها » .

فاذا كانت المدنية التى أقامها المسلمون عجيبة باهرة ، وحفاوتهم بالعلوم الطبيعية شديدة مجهدة ، فما ذلك إلا لأن كتابهم لم يدع قـوة من قـواهم النفسية إلا أيقظها وبعثها للعمل ، فتألف من مجموع ذلك حركة دافعة لم يقف فى وجهها شىء ، ولا تزال تدفعهم لاسترداد مكانتهم العالمية ، تحت ضوء كتابهم القيم ، ودينهم السمح .

عبد العزيز السيد موسى
واعظ القاهرة

مكتبتنا العربية

مجلة لكلية اللغة العربية

بفضل من الله ونعمة وفقت فكنت « الأول » فى ترتيب الناجحين الحاصلين على الشهادة العالية لكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية فى هذا العام ، وبذلك تشرفت فنلت الجائزة الملكية السامية التى خصصها لمثل جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول ، طيب الله ثراه ، وقدرها عشرون جنيها مصريا .

وأنا أحب أن أؤدى بعض ما يجب على نحو كلية اللغة ، ذلك المعهد الجليل الذى ارتشفت من منهله ، وطعمت من ثماره ، وقد نظرت فوجدت أن آيات النشاط اللغوى والثقافى والاجتماعى قد بدأت تظهر وتتسع فى الكلية ، إلا أنه ينقصنا نحن أبناء كلية اللغة العربية أن يكون لنا مجلة علمية أدبية ، نعرض فيها على الناس إنتاجنا وآراءنا ، ونجعلها الصلة بيننا وبين المجتمع ، فنؤدى عن طريقها جانبا من رسالتنا فى الحياة .

لذلك أعلن تبرعى بهذه الجنيهات العشرين ، كى تكون نواة مادية لإنشاء هذه المجلة ، راجيا بإعلان هذا التبرع أن يقبل أبناء الكلية ومتخرجوها وأساتذتها وأصدقاؤها على المشاركة المادية والأدبية فى تنفيذ هذا المشروع ، وأن يسارعوا بتعضيده والتبرع له ، كل بحسب ما يستطيع ، حتى تخرج الفكرة من عالم الأحلام الى دنيا الوجود ، وستؤلف فى الكلية لجنة لهذا الغرض ، كى يتصل بها من يريد التبرع أو الاستعلام ، والله ولى التوفيق .

أحمد الشرباصى

كلية اللغة العربية

(مجلة الأزهر) إننا نعجب بهمة فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى ، ونسر بأن ننوه باسمه ، ونشيد بذكره ، فان اقتراحه هذا يكشف عن نفس تكيفت بالعلم ، واستضاءت بالمعرفة ، فان كان يختتم حياته الدراسية بهذه الأريحية ، فانه يرجى أن يفتتح حياته العلمية بما هو أعظم أثرا فى المجادة ، وأبعد شأوا فى النفع والافادة .

فضيلة نشر العلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج » .

وقال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب . ولمداد ما جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله » .